مغامرات دون كيخوتة



ترجمة: فاضل السعدوني

مكتبتنا

تأليف : ميغيل دي ثربانتس

مغامرات دون كيخوتة

اعداد

أي . اس . هوربني

ترجمة

فاضل السعدوني

مغامرات دون كيخوته
ترجمة : فاضل السعدوني
الطبعة الاولى ١٩٨٧

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام / دار ثقافة الاطفال
ص . ب ٨٠٤١ بغداد ـ العراق

سلسلة مكتبتنا

تُعد [دون كيخوتة] لثربانتس واحدة من روائع الأدب العالمي الاربع، مع [الألياذة] لهوميروس و[الكوميديا الالهية] لدانتي و[فاوست] لجوتة

ولقد اعتمدنا في هذه الترجمة على نسخة مُعدة خصيصاً للقراء الصغار، الّا أننا قمنا بمراجعة اسماء الاعلام والاماكن الواردة في النص على الترجمة الاصلية التي حقّقها عن الاسبانية الدكتور عبد الرحمن بدوي.

المترجم



«دون كيخوتة»
يقرر ان يصبح فارسا

قبل ثلثمائة وخمسين عاماً تقريباً، وفي قرية بمقاطعة (المنتشا) في اسبانيا، عاش رجل نبيل اسمه الحقيقي (اولونسوكيخانو)، غير أنه عُرف في العالم كله باسم (دون كيخوته). أما كيف حدث أن غُير اسمه، فهذا ما سنراه لاحقاً في هذه القصة.

في أصيلٍ صيفي حار، كان هذا الرجل النبيل يجلس في غرفةٍ في الطابق الثاني من بيته الصغير. كان منصرفاً تماماً الى القراءة في كتاب سميكٍ يقبع مفتوحاً أمامه على المنضدة، في حين تناثرت كتبُ أخرى؛ كبيرة وسميكة أيضاً، على الكراسي والارضية من حوله.

كان في الخمسين من عمره تقريباً، طويلاً ونحيفاً، وله وجه ذو نظرةٍ حادةٍ، وكان ذهنه على ما يبدو، ممتلئاً بافكار غريبةٍ، كما لو أنه يعيش في عالمٍ من الاحلام والخيال. كانت إحدى يديه؛ باصابعها الهزيلة المرتجفة، تمسك بالكتاب المفتوح؛ أمّا اليد الثانية فكانت تمسك بسيفٍ وضعه على ركبتيه.

كان كل شيء هادئاً في الغرفة، وابتدأ القارىء ينغمس أكثر وأكثر في كتابه، وابتدأت إثارته تزداد، فسحب شعر راسه بيديه الاثنتين، كما لو انه ينوي قلعه. وفي النهاية، قفز متوحشاً، ورفع سيفه، وبدأ يقاتلُ عدواً خيالياً، وأخذ يصرخُ بصوتٍ شبيه بالرعد:

- «أيها الكلب!، ارفع يدك عن السيدة. دع الأميرة تمر!. هل تريد القتال ياقاطع الطريق؟. إذن، تعال ونل عقابك!.»

وبهذه الكلمات ضرب عدوه الخيالي، واخطأت الضربة بشعرة سيدة شابة جميلة، هي ابنة اخته، التي جاءت الى الغرفة مهرولةً ومرعوبة في تلك اللحظة. بينما وقفت خلفها، في الممر المظلم، امرأة أكبر سناً هي مدبّرة منزل الرجل النبيل.

- «خالي العزيز ماالأمر؟»

كان الرجل المتوحش نصف مجنون. وفي خياله كانت ابنة أخته اميرة أنقذها من الأذى بشجاعته. ثم ركع لها، ومسَّ يدها وهو يقول:

- «لاتخشي شيئاً أيتها السيدة النبيلة، لقد تغلبت على عدوك وقتلته.»

كانت الفتاة معتادة على تصرفات خالها الجنونية الغريبة، ولقد أرادت أن تُسره، فأجابت:

- «لقد فعلت حسناً. واني لأشكرك كثيراً. ارجوك أجلس واسترح بعد مجهودك الجبار، وسأجلب لك شيئاً تشربه.»

ثُمَّ قادته الى كرسي قريب، وغادرت الغرفة مع مدبِّرة المنزل، ثُمَّ مالبثت أن عادت بعد لحظاتٍ حاملةً معها قدحاً من الماء البارد:



- «إنه لأطيب شرابٍ ذقته. سيجعلني اعيش الى الابد.»

ومن ثَمَّ، وقد تعب من جهوده المضنية، اضطجع على سرير وغطّ في نومٍ عميق.

إنَّ حوادثَ من النوع الذي وصفناه، أصبحت مألوفة منذ عدة شهور. وفي الوقت الذي عاش فيه هذا النبيل، كانت مُعظم الكتب التي يستمتع بها القُراء تدور حول مغامرات الفرسان الغريبة. وكانت تلك قصصاً طويلةً، ممتلئة بكل ماهو مستحيل وخيالي من الحوادث، أشياء يمكن ان تتراءى للمجانين في احلامهم، وكان أولئك الفرسان يتجولون في انحاء العالم. يهاجمون اللصوص وقُطاع الطرق، وينقذون النسوة ويساعدون الرجال الذين يتعرضون للأذى.

ولقد سببّت كتب الفرسان هذه الكثير من الاذى في اسبانيا. إذ إنَّ هذا النبيل البسيط من اقليم (المنتشا)، على سبيل المثال، قد تخلى عن عمله المعتاد في أرضه، وكرَّس مُعظم وقته للقراءة.

ولقد باع أرضاً خصبة من حقله، لكي يحصل على النقود التي يشتري بها المزيد من هذه الكتب السميكة الكبيرة التي ملأت غرفته. ومنذ طلوع الشمس الى أنْ يُخيم الليل، كان ينحني فوقها، بل انه في بعض الأحيان، يبقى ساهراً طوال الليل ليقرأ فيها. وفي النهاية، وبعد ان ملأ رأسه بكل هذه القصص الخطيرة، ابتدأ يتخيل أنَّ كل تلك الاختلافات المثيرة هي قصصٌ واقعية صحيحة. وبهذا الاعتقاد الخاطيء في ذهنه، ابتدأ يعدُّ نفسه الفارس في القصة التي يقرأها، وكان يستّل سيفه ويقاتل المخلوقات التي يتخيلها في عقله المهتاج. وكان يندفع بجنونٍ حول الغرفة مسبّباً الفزع لجميع من في

البيت بصرخاته الحادة.

في البداية، كان يتصرف بهذه الطريقة المتوحشة لبضع ساعات في اليوم، يُصبح بعدها هادئاً ومسالماً مرة أخرى. ولكنَّ أحواله تدهورت في النهاية، وقرَّر أنْ يخرج الى العالم باعتباره فارساً يذود عن الضعفاء ويهاجم الباطل في كل مكان.

ومن زاويةٍ مظلمةٍ في البيت، أخرج درعاً قديماً كان يقبع منسياً منذ مائة عام، ولقد كان قذراً ومتناثراً الى قطع، غير أنه نظفه وربط أجزاءه الى بعضها على أفضل مايستطيع، ولم تكن الخوذة تحتوي على مايقي الوجه، لذلك صنع له قناعاً من قطع الحديد، وبذلك اقتنع عندها بأنَّ خوذته أصبحت الفُضلى في العالم كله.

ثم خرج ليتفحص حصانه الذي كان حيواناً ضعيفاً مسكيناً مكوناً من العظام أكثر من اللحم. ولكن في عيني صاحبه؛ بدا الحصان أكثر روعةً من أي حصان مشهور في التأريخ. إنَّ مثل هذا الحصان الرائع الذي يحمل مثل هذا الفارس المشهور لابد من أن يحمل اسماً. وبعد التفكير بعناية في الأمر لأربعة أيام، مستعرضاً مئات الاسماء في ذهنه، قرر أن يُسمي حصانه (روثينانته).

ومرت ثمانية أيام أخرى قبل ان يقرر ماذا يُسمي نفسه، وذلك لأنه لم يكن مقتنعاً بأسمه، وفي نهاية الامر رسا على اسم (دون كيخوته)، وبهذا فإنه سوف يجلب الشرف الى جزء اسبانيا الذي وُلد فيه، وأضاف الى اسمه (دلا منَتشا) والتي تَعني (مقاطعة منتشا).

لم يتبق الا أن ينجز أمراً واحداً فقط. اذ يجب عليه أن يختار سيدةً تُشرفه بحبها واحترامها. ولقد خاطب نفسه قائلاً:

- «إذا حدث أن قابلت عملاقاً، مثلما يحدث للفرسان عادة، وحاربته وتمكنت من أسره، فمن الأفضل أن تكون هناك سيدةً، أستطيع أن أرسله لها، وأنَّ العملاق سيذهب ويركع لها، ويقول بصوتٍ ممتلىء بالاحترام:

- «سيدتي أنا العملاق (كاراكوليا ميرو)، هُزمت في مبارزة مع الفارس [دون كيخوته دلا منتشا]. ولقد أمرني أن آتي اليك، يا سيدتي العظيمة، لكي تفعلي بي يا صاحبة السعادةِ ما تشائين.»

سُرَّ الفارس الطيب بكلماته الرائعة، وازدادت سعادته عندما اختار سيدته. ففي قرية ليست بعيدة، كانت هناك فلّاحة شابة تعمل في حقل قريب، ولقد أحبها (دون كيخوته) من قبل على الرغم من أنه لم تتوفر له الشجاعة الكافية ليخبرها بذلك. كان اسمها (الدونثا لورينثو)، لذلك قرر أن تكون هي سيدة قلبه، وأنعم عليها بالاسم الرائع (دلثينيا دل توبوسو) أو (سيدة توبوسو الرائعة)، و (توبوسو) هي القرية التي وُلدت فيها.

كيف تم تنصيب «دون كيخوتة» فارسا

قال (دون كيخوتـه) بهـدوء، حالمـا خرج من سريـره عند شروق الشمس في صباح اليوم التالي:

- «العالم ينتظرني».

ثم ارتـدى درعـه، ونـزل الى الطابق السفلي بهدوء حتى لا يوقظ سُكان البيت. خرج الى الاسطبل وقاد (روثينانته) وركب مبتعداً. كان ممتلئاً بالمتعة لمعرفته أنّه قد ابتدأ مغامراته العظيمة.

ولكنـه لم يبتعـد كثيـراً حتى راودتـه فكرة مزعجة، إذ إنَّه لم يُنصب فارساً من قبل أي ملكٍ او حاكم، ولهذا السبب، فليس له الحق في قتال الفرسـان. ولقـد أزعجته هذه الفكرة كثيراً، وكـان على وشـك أن يتخلى عن خطتـه بكاملها، ولكن لحسن الحـظ. تذكـر أنَّ هنالك الكثير من الرجال الشجعان الذين قرأ عنهم في كتبـه، ممن تمَّ تنصيبهم فرسـانـاً من قبل أول شخص مناسب التقوه. ولقد أعاد ذلك السعادة له مرة أخرى، وقرر أن يسلك مسلكهم. لذلـك استمـر برحلتـه، تاركـاً حصانه يختار الاتجـاه الـذي يسيـر فيـه، لأنَّ هذا ما كان يفعله الفرسان دائماً

عندما يبدأون مغامراتهم. وابتدأ يحلمُ بمعارك هائلة يكون هو المنتصر فيها دائماً ويفكّر في (دلثينيا). وظلَّ يسير ساعة بعد أخرى، حتى ارتفعت الشمس الى كبد السماء.

وطوال ذلك النهار، ظلَّ راكباً من دون أية مغامرةٍ تذكَر. ثمَّ حلَّ المساء، وكان هو وحصانه جائعين، فظلَّ يبحث عن قعلةٍ يجد فيها الراحة والطعام. وعندما وجد حانة صغيرة، كان الظلام قد ابتدأ بالهبوط.

كانت الحانة من أفقر الحانات في الاقليم، يستعملها البغالون والمسافرون الفقراء الاجلاف، ولكنها بدت للفارس المجنون قلعةً رائعةً. وكانت هناك متسولتان من أسوأ وأردأ نوع تقفان خارج الباب، ولكنهما تحولتا في ذهنه الى سيدتين نبيلتين تقومان بجولة مسائية أمام بوابة القلعة.

ولكي يكمل اعتقاده الأحمق. وفي تلك اللحظة بالذات، نفخ رجل يعمل في الحقل المجاوَر لبضع مرات في بوقه، حيث كان يدعو بعض الحيوانات للعودة الى الحقل، ولكن (دون كيخوته) كان متأكداً، من أنَّ ذلك الرجل كان جندياً واقفاً على أسوار القلعة، وقد رآه لذلك فهو يخبر سيد القلعة كي يخرج ويرحّب به.

وباقتناع عظيم رفع قناعه كاشفاً عن وجهه المتعب المُغبر. في حين كانت المتسولتان تحملقان فيه بفزع وكانتا على وشك الهرب عندما خاطبهما قائلاً:

- «لا تذهبا أيتها السيدتان النبيلتان، ولا تحكما عليَّ خطأً، فلا داعي للخوف مني، فأنا فارس، ولا يمكن أن يؤذي فارس مثلي سيدات نبيلات مثلكن.»

بعد أن سمعت المرأتان هذا الرجل الغريب يتحدث إليهما

ويُسميهما بالسيدات النبيلات، لم تستطيعا منع نفسيهما من الضحك.

وضحكتا طويلاً وعالياً إلى درجة جرحت أحاسيس دون كيخوته فقال لهما بجدية:

- «الجمال وقلة الأدب لا يتفقان معاً، والضحك الذي ينتج من عقل فارغ هو ضحك أحمق. أرجوكما، لا تشعرا بالأذى من كلامي، فأنا لا أضمر لكما الشر، بل أنا مستعد لخدمتكما بكل السبل.»

وكان رد فعل المرأتين أنَّهما ضحكتا بصوتٍ أعلى من قبل من هذه الكلمات الجادة، ولا يمكن لأحد أن يقدرّ ما كان يمكن أن يحدث لو لم يظهر صاحب الحانة في تلك اللحظة.

كان رجلاً بديناً ذا طبيعة وادعة، يحب الحياة الهادئة، وفي البداية، وعند رؤيته هذا الفارس الغريب على حصانه الهزيل. أراد أن ينضّم الى المرأتين في الضحك عليه، ولكنه سرعان ما رأى سيف الفارس ورمحه، فأعتراه الخوف قليلاً، وتوجه نحو (دون كيخوته) وخاطبه بأدبٍ:

- «إذا كان سيادتكم يبحث عن مكانٍ يُقضي فيه الليل، فستجد في هذه الحانة كل ما تشتهي، بأستثناء السرير، إذ لا يمكنك الحصول عليه.»

بعد أن اكتشف أنَّ سيد القلعة - أي صاحب الحانة - رجلٌ محترم، أجابه (دون كيخوته) فرحاً:

- «ستجدني يا سيدي رجلاً يسهل إرضاؤه، فإنَّ حاجات الجندي لمتواضعة جداً.»

ثُم ساعد صاحب الحانة (دون كيخوته) على الترجل من حصانه. ولأن الرجل العجوز لم يتناول شيئاً طوال النهار فلقد

كان ضعيفاً جداً :
- «ارجو ان تعتني بحصاني، فهو أثمن حصانٍ عاش على هذه الأرض.»

ألقى صاحب الحـانـة نظـرة واحـدة على (روثينـانتـه) المسكين، وعنـدمـا لم يجـد فيـه ما يثير الاعجاب، وضعه في الاسطبـل في الحـال وعـاد لكي يعتني بالضيف العـزيـب، وفي هذه الأثنـاء سمـح (دون كيخـوتـه) للمتسولتين أن تخلعا درعه الثقيل، وعندما انتهتا سألتاه إن كان يريد شيئاً ليأكل، فرد (دون كيخوته):
- «سأرحّب بأي عشاء بسيط.»

وعنـدمـا اخبـرتاه بأنهما لاتمتلكان إلاسمكة صغيرة، طلب إحضارها بأسرع مايمكن.

عنـدمـا جُلبت السمكـة كانت من أردأ الأنـواع وتفـوح منها رائحة نتنة، ولقد نُصبت المائدة في الخارج، لأنَّ الغرفة كانت حارةً جداً، وهكذا جلس (دون كيخوته) هناك ليتناول عشاءه. وعنـدمـا كان على وشـك الانتهـاء، مرّ رجـل ريفي وهو يعزف الموسيقى. ولأنَّ (دون كيخوته) حوّل في ذهنه الحانة الى قلعة وصـاحب الحـانـة إلى سيـد عظيم والمتسـولتين الى أمـرأتين نبيلتين، لذلـك كان من السهـل عليـه ان يتخيـل أنَّ تلك كانت أروع موسيقى عُزفت لتسليتـه في اثنـاء جلوسـه الى المـائـدة. وعندما أنهى عشاءه، كان راضياً تماماً بمغامرات يومه الأول.

ولكن بقيت مسألـة واحـدة تزعـج ذهنه، وهي أنَّه لم يُنصّب فارسـاً لحـد الآن. لذلك، وحالما أنهى عشاءه المتواضع، قاد صاحب الحانة الى الاسطبل وأغلق الباب خلفه، ثُمَّ ركع أمامه

وقال :

ـ «لن أنهض على رجلي أيهـا الفـارس الشجـاع حتى تُلبي لي مطلبي ، وأنّ ذلك سيكون شرفاً لك ومساعدة لكل الناس . »

عندما راى صاحب الحانة الرجل العجوز راكعاً على الأرض أمـامه وهو يتفوه بهذه الكلمات الغريبة ، أحتار ولم يعرف كيف يتصـرف وبمـاذا يرد عليه . ثُم توسل اليه أن ينهض ولكن (دون كيخـوته) رفض ذلك تماماً . وفي النهاية وعده صاحب الحانة .

فقال (دون كيخوته) :

ـ «كنت متأكـداً من موافقـة سيـادتكم . والآن دعني أخبـرك بما أريد . غداً عند شروق الشمس يجب أنْ تُنصّبني فارساً ، ولكي اكون مناسباً لهذا الشرف ، فإني سأظل يقظاً طوال الليل أراقب درعي في الكنيسـة التي تعود لقلعتك . وفي الصباح أرحل بحثاً عن مغامراتي العظيمة والخطيرة . »

في تلك الاثنـاء ، فَهم صاحب الحـانـة أنَّ (دون كيخـوتـه) رجـلٌ مجنون . ولأنَّ صاحب الحانة كان رجلاً مغرماً بالفكاهية لذلك قرر أنْ يفعل ما تمناه الرجل العجوز وهو يفكر في مقدار التسليـة التي سيحصل عليها من ذلك . ثم مدح (دون كيخوته) لرغبتـه في أن يُنصبـه فارسـاً ، قائلاً إنَّ هذا بالضبط ماتوقعه من رجل نبيل ووسيم وشجاع مثله ، واخبره بأنّه قد سافر ايضاً بحثاً عن المغامرة في مطلع شبابه . ولقد كان هذا الكلام صحيحاً في بعض جوانبه لأنّه كان لصاً وقاطع طريق معروفاً وكان نزيلاً في العـديد من السجـون الاسبـانيـة ، أمّا الآن ، وبعد أنْ تقدم في السن ، فإنه يعيش بسلام في قلعته ، وأنَّ متعته الأساسية هي في التـرحيب بالفـرسـان في أثنـاء رحـلاتهم (ولقـد عنى بذلك أنَّه أصبـح غنيـاً بإجباره اولئك المسافرين التعساء الذين يُقدر لهم



المرور بحانته على دفع أجورٍ باهظةٍ). ثم استمر قائلاً إنْ كنيسة قلعته قد هرمت لانشاء واحداً جديدة، ولكن بإمكان الرجل النبيل أنْ يُقضي الليل في العراء داخل جدران القلعة في اثناء حراسته لدرعه. وغداً سوف تُنصب فارساً أصيلاً وحقيقياً، بحيث لن يكون هناك فارس أفضل منك في العالم كله)، بهذه العبارة ختم صاحب الحانة حديثه.

شكر (دون كيخوته) صاحب الحانة لكرمه ووعده بأن يطيعه دائماً، ثم ابتدأ يستعد لحراسته الليلية. وكان يوجد خارج الحانة حوض مياه لشرب الخيول، فوضع فيه قطع درعه ثم حمل ترسه على ذراعه ورمحه في يده وابتدأ يتجول أمام الحوض.

أخبر صاحب الحانة كل سكنتها حول تصرفات العجوز المجنون، وسرعان ماجتمع حشد صغير لمراقبته، ولقد نجحوا في فعل ذلك بصمت لأنَّ القمر كان يشرق براقاً. وفي بعض الاحيان كانوا يشاهدون العجوز يتمشى بوجه هاديء، ولكنه في بعض الأحيان كان يقف ويحملق بجدية في الدرع.

وفي هذا الوقت قرر أحد البغالين أنَّ حيواناته قد عطشت، فذهب الى الحوض كي يخرج درع (دون كيخوته) قبل ان يملأ بالماء. وعندما راى (دون كيخوته) ماكان البغال ينوي فعله، صرخ به بصوتٍ عالٍ:

- «بغض النظر عمن تكون أيها الفارس الجسور، فاحذر مما انت فاعل!. إياك ان تلمس درع اشجع فارس استخدم الحسام، وإلا فإنك ستدفع حياتك ثمناً لشجاعتك الحمقاء.»

لكن هذه الكلمات الرنانة لم تجد أذناً صاغيةً عند البّغال، اذ التقط الدرع ورماه بعيداً عنه، وعندما راى (دون كيخوته)

ذلك رفع عينيه وهتف باسم (دلثينيا) ثمّ رفع رمحه بكلتا يديه وهوى به على رأس البغال بقوةٍ بحيث خرّ مغشياً عليه. والتقط (دون كيخوته) درعه وأعاده الى الحوض وأبتدأ التجول مرة أخرى بعد ذلك مباشرةً، جاء بّغال آخر الى الحوض، من دون أن يعرف ما حدث، إذ أراد أن يسقي حيواناته، وكان على وشك أن يرفع الدرع عندما رفع (دون كيخوته) رمحه مرة ثانيةً، وهذه المرة ضربه ضربتين كادتا تفلقان رأسه.

تجمع البغالون في الحانة، وهبوا لمساعدة صديقيهم. وبسحب (دون كيخوته) سيفه واستخدم ترسه كدرع ضد وابل الحجارة الذي انهال عليه من البغالين. وركض صاحب الحانة وتوسل الى البغّالين أن يتوقفوا عما يفعلون، قائلاً لهم:

- «إنّ الرجل مجنون، لقد أخبرتكم بذلك. والقانون لا يستطيع معاقبته حتى لو قتلكم جميعاً».

وصرخ (دون كيخوته) بصوتٍ يشبه الرعد:

- «هيا! هل أنتم هناك أيها الفرسان الخونة الأشرار؟. وهل هذه هي الطريقة التي تعاملون بها فارساً؟ إنكم لمحظوظون لأني لم أنصَّب فارساً بعد، وإلاّ لأجبرتكم على القتال وجعلتكم تدفعون حياتكم ثمناً لهذا الهجوم الشرير. إني لا أعبأ بكم جميعاً أيها المتسولون، تعالوا جميعاً، فأنا مستعد، فتعالوا ونالوا ما تستحقون من عقاب.»

كان مظهره وصوته مرعبين ملأ اعداءه بالرعب. فتراجعوا وتوقفوا عن رمي الحجارة، وسمح لهم (دون كيخوته) بإخلاء زملائهم الجرحى، ثم عاد مرة أخرى الى تجواله الهادىء.

كان صاحب الحانة قد أصبح ضجراً من تصرفات الرجل العجوز، وقرر أنَّ الوقت قد حان كي ينهي هذه النكتة قبل أن

يحـدث ما هو أسـوأ. لذلـك ذهب الى (دون كيخـوتـه) وسأله الصفـح عن اولئـك المتسولين، وأخبره بأنهم تصرفوا من دون مشورته، وأنه سيعاقبهم بعدلٍ، وأضاف قائلاً: إنه يستطيع أن يُنصب (دون كيخوته) فارساً في أي مكان، وإن ساعتي حراسة همـا مدة كافية لأغراض التنصيب، وكان (دون كيخوته) قد قام بالحراسة لأربع ساعات مُسبقاً.

صدَّق (دون كيخوته) كل ذلك، وطلب أن ينصب فارساً في الحـال، فإذا هوجم مرة أخـرى فإنـه سيقتـل كل شخص في القلعة باستثناء من يُظهر لهم الرحمة بناءً على رغبة سيد القلعة.

ولقـد أصبح صاحب الحانة أكثر رعباً وقلقاً، فدخل وأخرج دفتراً قديماً، ثم أخبر (دون كيخوته) أن يركع أمامه، وابتدأ يقرأ بصـوتٍ واطيء وسـريع مثل رجل يصلي، ووسط قراءته، أخذ السيف ووضعـه بلطف على كتف (دون كيخـوتـه) وهـو ما زال يتحـدث بالنبـرة الجـدية نفسها ثم طلب من إحدى المتسولات أن تُثبت سيف (دون كيخـوتـه) الى حزامـه. وعنـدمـا ساعدته المتسـولـة الأخـرى في ارتـداء درعـه، أخـرج (دون كيخوته) حصـانـه (روثينـانته) من الاصطبل وركبه باعتباره فارساً منصّباً مستعداً للقتال في أي مكان ضد المخطئين. أما صاحب الحانة الذي سر لرؤيته وهو يغادر، فلم يسأله أن يدفع له أي شيء!..



مغامرات دون كيخوتة بعد مغادرته الحانة

قرر (دون كيخوتـه) بعـد مغادرته الحانة أن يعود الى البيت ليجلب بعض النقود، كما أنه أراد أيضاً أن يجد تابعاً له قبل أن يذهب بعيـداً بحثـاً عن المغامرة. وعندما أشرقت الشمس كان قد وصـل الى غابـة صغيـرة، وفجأة سمـع صرخـات استغـاثـةٍ صادرة منها. فقال لنفسه:

- «الحمد لله، فلقد حانت فرصتي لأؤدِّي واجبي باعتباري فارساً.»

وعنـدمـا دخـل إلى الغابة، راى شيئاً ملأه بغضبٍ نبيلٍ. اذ وجد فتىً في الخامسة عشرة من عمره مربوطاً الى شجرة، ولقد كان ذلك الفتى هو الذي يصرخ طلباً للمساعدة. في حين كان هنـاك رجـل ضخم، يبدو من مظهره أنه مزارع يقوم بضربه من دون رحمـة، وقـد ربـط حصـانة الى شجرة قريبة وأسند رمحه الطـويـل عليهـا. وعنـدما شاهد (دون كيخوته) ما كان يحدث صاح بالرجل:

- «مـا معنى هذه القسـوة أيهـا الفـارس الشـرير؟ أركب جوادك

وأحمل رمحك، فسأعلِّمك كيف تتصرف مع الضعفاء والمساكين.»

وعندما راى الرجل (دون كيخوته) متقلداً رمحه، امتلأ بالرعب وأجابه بصوتٍ واهن :-

-«سيدي أيها الفارس، إنَّ هذا الفتى هو راعي أغنامي، وهو كسول ومهمل، إذ تضيع منه نعجة كل يوم، وعندما أعاقبه يقول: إنَّ ذلك.

يحدث لأني لا أريد أن أدفع له أجرته، ولكن هذا ليس صحيحاً.»

وعند سماعه هذا الجواب، صرخ به (دون كيخوته):

- «هل تقول إنَّ هذا غير صحيح؟ فُكَّ وثاق الفتى في الحال وأدفع له أجرته، أو سأضربك بالرمح.»

أطاع المزارع ثم سأل (دون كيخوته) الفتى عن مقدار دينه، فردّ الفتى:

- «سبعة ريالات في الشهر لمدة تسعة شهور.»

فقال (دون كيخوته):

- «هذا يعني ثلاثة وستين ريالاً. أدفع له في الحال إذا لم تُرد أنْ تموت.»

فقال الرجل: إنَّه لا يحمل مثل هذا المبلغ الآن ولكنه سيدفع إذا عاد الفتى معه الى البيت.

عندها صرخ الفتى مرعوباً:

-«أذهب الى البيت معه! حالما أصبح وحيداً معه فإنه سوف يقطعني إرباً، إرباً.»

فرد عليه (دون كيخوته):

- «لا داعي للخوف من ذلك. إنه سيعد بشرفه باعتباره فارساً أن

يدفع لك ما هو مدين لك به، وإلّا يُلحق بك أي أذىً.»

- ولكنك مخطيء فهذا الرجل ليس فارساً، إنه المزارع الغني (هلدودو) من أهل (قنطنار).

فأجاب (دون كيخوته):

- «ومع ذلك فإنه قد يكون فارساً.»

فردّ المزارع:

- «هذا صحيح. تعال معي أيها الفتى وأعدك بأني سادفع لك كل ريال أدين به لك.»

فقال (دون كيخوته):

- «ادفع له، أو أني سأعثر عليك مثلما أنا متأكد من أني (دون كيخوته دلا منتشا) المُدافع عن المساكين.»

ثمَّ ركب حصانه تاركاً السيد والفتى لوحدهما:

وحالما ذهب (دون كيخوته) استدار المزارع الى الفتى، وقال له وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية:

- «تعال هنا أيها الفتى لكي أدفع لك ما أنا مدان به لك مثلما أمرني الفارس الطيب أنْ أفعل.»

وفي حين كان يقول ذلك، أمسك بالفتى بقوةٍ من ذراعه وربطه الى الشجرة مرة أخرى، وكاد يزهق روحه من الضرب. وعندما تعب المزارع تماماً، فكّ وثاق الفتى وقال له:

- «والآن اذهب وابحث عن فارسك الشجاع وأخبره عن الكيفية التي دفعت لك بها.»

وفي حين كان يحدث ذلك، استمر (دون كيخوته) في طريقه راضياً تماماً عن بداية مغامراته. وبعد فترة التقى بمجموعة من الرجال، وكانوا تُجاراً من (توليدو) في طريقهم الى (موريكا) لشراء الحرير. وكانوا ستة تجّار وأربعة خدم

يركبون الخيول وثلاثة بغّالون يمشون ويقودون حيواناتهم.

فكـر (دون كيخـوتـه) في أنَّ هذه فرصة ثانية ليظهر شجاعته باعتبـاره فارسـاً، فغطّى جسـده بدرعـه، وشدّد من قبضته على رمحـه وأنتظـر الفرسان، فلقد كان متأكداً من أنَّ هؤلاء الرجال هم من الفرسان. وعندما اقتربوا منه بما فيه الكفاية صرخ بهم:

- «قفـوا جميعكم. اعتـرفـوا بأن ليست هنـالك سيدة في العالم أجمل من ملكة (لامنتشا)؛ (دلثينا ديل توبوسو)».

توقف التجـار عنـد سماعهم هذه الكلمات الغريبة ورؤيتهم مظهـر المتحـدث الغـريب. ثم أجـاب أحـدهم وكـان يهـوى المرح، نيابة عنهم:

- «سيـدي أيهـا الفـارس، نحن لا نعـرف السيـدة التي تتحدث عنها. دعنا نرها فإن كانت جميلة مثلما تقول، فإننا سنوافق بسرور.»

فردَّ عليه (دون كيخوته):

- «لا حاجة بك لأنْ تراها. يجب أن تؤمن بما أقول وتعترف بأن كلمـاتي صحيحـة. فإذا رفضت فيجب أن تقاتلني، فأنا مستعد لمـواجهتكم، سواء برزتم لي فارسـاً فارسـاً أو هجمتم جميعـاً مثلما يفعلُ الأشرار عادةً.»

فأجاب التاجر:

- «سيدي الفارس. إننا لا يمكن أن نتحدث عن جمال سيدةٍ لم نرها أو نسمع بها. إنّها قد تكون عجوزاً شمطاء قبيحة..»

لم ينتظـر (دون كيخـوتـه) ليسمـع المـزيد، بل أندفع نحو المتحدث برمحه، ولو لم يسقط (روثينانته) لكان التاجر قد دفع حياته ثمناً لسُخريته الحمقاء. ولكن (روثينانته) سقط أرضاً في



حين تدحرج فارسه بعيداً لمسافة طويلة حتى ارتطم بصخرة كبيرة. وعندما حاول الوقوف منعه درعه الثقيل من الوقوف.

تمدد (دون كيخوته) على ظهره، وأبتدأ يحرك رجليه وأذرعه مرعوباً، وكان يصرخ بأعدائه طوال الوقت، في حين وقفوا بالقرب منه وهم يضحكون من كل قلوبهم:

- «لا تهربوا أيها الحمقى الجبناء! إنه ليس ذنبي بل تعثُّر الحصان هو الذي جعلني اضطجع هنا عديم الحيلة.»

ولقد سبّبت كلمات (دون كيخوته) غضب أحد البّغالين، بحيث إنه قرر أن يردّ على الفارس الساقط المسكين بالضرب، فسحب الرمح من يد (دون كيخوته) وكسره الى نصفين، ثم أخذ نصفاً منه وابتدأ يضرب الرجل بُعنف، بحيث أصبح جسمه وعلى الرغم من وجود الدرع مُبقّعاً ببقعٍ سودٍ وزُرق، ولقد استمر في فعل ذلك حتى تحول نصفا الرمح الى أجزاء صغيرة. ولكن لا شيء يمكن أن يمنع الفارس الشجاع من الكلام، بل ظلّ يصرخ بوحشية على اللصوص. مثلما افترض أنهم كذلك الآن.

وفي النهاية، انتاب البغّال التعب وركب الجميع تاركين الفارس التعيس مرمياً على الأرض. وعندما ذهبوا حاول النهوض مرة أخرى غير أنه سقط، ومع ذلك بقي قلبه فرحاً، ففي خياله كان فارساً مُغطى بالجروحِ بعد معركة عظيمةٍ.

مرّ يومان منذ أن غادر (دون كيخوته) البيت. ولقد لزداد قلق ابنة اخته ومُدبرة المنزل عليه، ولقد كانتا غالباً ما يسمعانه يُردد أنّه يتمنى أن يكون فارساً، والآن ابتدأتا بالاعتقاد بأنّه قد نَفذ خطته.

وفي مساء اليوم التالي، وبعد بضع ساعات من ضربه من

قِبل البغال، اسدعتا كاهن القرية (پيرو پيريث) والحلاق (نقولا) اللذين كانا صديقين حميمين لدون كيخوته، وأعربتا لهما عن خوفهما. ولقد تحدثت مُدبرة المنزل عن النتائج السيئة لكتب الفروسية عليه. كما وصفت أبنة اخته التصرفات المتوحشة التي كانت تصدر من خالها عندما ينغمس بقراءته. ثُمَّ قالت عندما أنتهت قصتها:

- «أنا المُلامة لأني لم أخبركما من قبل حول جنون خالي المسكين. فلو عرفتما ذلك فلربما انقذتماه من نتائج جنونه بحرق تلك الكتب التي سبّبت كل هذه المشاكل.»

وفي تلك اللحظة سمع الجميع صوتاً عالياً ينادي في الشارع.

- «افتحي الباب للسير (بولدين) واللورد (مانتوا) الذي جُلب الى بوابتك وقد جُرح جرحاً خطيراً.»

أسرعوا جميعاً لفتح الباب ثُمَّ رأوا منظراً غريباً. كان (دون كيخوته) محمولاً على الحمار وقد أمسك برأسه رجل من أهل القرية، ولم يك يبدو بمظهر الفارس على الاطلاق، فلقد تفكك درعه وتغطى وجهه بالاوساخ، وكان (روثينانتة) هناك أيضاً ورأسه يكاد يمسّ الأرض تقريباً، إذ رُبطت الى ظهره كل القطع المكسورة من رمح (دون كيخوته).

وعندما رأوا ذلك، ابتدأوا بطرح الأسئلة ولكن (دون كيخوته) أسكتهم جميعاً قائلاً:

- «هدوء! أنا مجروح وجرحي بسبب كبوة حصاني. احملوني إلى السرير.»

رفعت مُدبرة المنزل يديها صارخةً:

- «ألم أخبركما بأنَّ سيدي قد جُنَّ؟ تعال ياسيدي وسنجعلك

تتعافى مرة أخرى. »

ثم ساعدته على الترجل من الحمار وحملوه الى غرفته، وخلعوا درعه ووضعوه في فراشه ثُمَّ سألوه عمن ألحق به الأذى، وأخبرهم (دون كيخوته) بأنَّه قد جُرح في كل أجزاء جسمه، فلقد رماه حصانه على الارض في أثناء قتاله مع عشرة عمالقة من أكثر العمالقة شراً في العالم.

وعندما سمع القس هذا قال:

- «اها!، إذن فهو يتحدث عن العمالقة. سأحرق هذه الكتب قبل مساء غد. »

وبعد أن اطمأن على صديقه، خرج ليقابل الرجل الذي جلبه إلى البيت. ووصف الرجل كيف وجد (دون كيخوته) مرمياً على قارعة الطريق وقد ضُرب حتى قارب الموت، فوضعه بصعوبةٍ شديدةٍ على حماره، في حين استمر العجوز يتحدث بتوحش عن الفرسان والسيدات وعن الحكام والقلاع والأميرات السجينات في تلك القلاع، ولقد جعل ذلك الكلام القسّ يدرك أكثر من أي وقت مضى، ضرورة حرق تلك الكتب.

دون كيخوتة وسنشوبنشا

في اليوم التالي، وبينما (دون كيخوته) مايزال مستغرقاً في النوم، جاء القس مع صديقه الحّلاق، وبمساعدة ابنة الأخت ومدبرة المنزل تمَّ حرق جميع الكتب. وبعد يومين نهض (دون كيخوته) من فراشه واتجه مباشرة الى غرفة مكتبته. وعندما وصل الى حيث يُوجد الباب، لم يجد سوى جدار. فسأل مُدبرة المنزل التي كانت قد صعدت لتوها:

- «ما معنى هذا؟»

وكانت المرأة قد أخبرت من قبل بما تقول، فأجابت في الحال بأن الغرفة قد اختفت مع جميع محتوياتها أو حملها الشيطان.

وردت ابنة أخت (دون كيخوته) التي وصلت لتوها وتذكرت وصية القس على نحو أفضل:

- «لا.. ليس الشيطان، بل هو ساحر جاء في احدى الليالي عندما كنت بعيداً عن البيت، فدخل الغرفة وبعد بضع دقائق طار عبر السقف بعد أن امتلأ البيت بالدخان، وعندما صعدنا

الى الاعلى لنرى ما حدث، وجدنا أنَّ الغرفة والكتب التي في داخلهـا قد اختفت. لاأعـرف ما يعني هذا ولكني اتـذكـر أنَّ الـرجـل العجـوز الشرير قال وهو يغادر بصوت عال إنه يريد أن يلحق الأذى بصاحب الكتب وأضاف أيضاً أنَّ اسمه (منياتون الحكيم).

فأجـابهـا (دون كيخوته) الذي اصغى بجديةٍ مطلقة الى هذه القصة الغريبة:

ـ «لابد من أنّه قال فرستون.»

ثّم أضـاف: «إنـه لسـاحر عظيم جداً وهو عدوي اللدود. لقد غضب مني كثيـراً لأنـه عرف أني سأقـاتل في يوم من الأيام أحد الفـرسـان الذين يؤازرهم وساتغلب عليه. ولأنه لايستطيع منع ذلك، فهو يقوم بهذه الافعال الشريرة ضدي.»

أمّـا الحقيقـة فهي أنَّ القس ـ في أثنـاء مرض دون كيخـوته ـ طلب بنـاء جدار محـل البـاب، وأخبـر المـرأتين أن تقصّا على (دون كيخوته) هذا التفسير الذي صدّقه في الحال.

ولمـدة أسبـوعين بقي (دون كيخـوتـه) هادئـاً في بيته. ولقد دارت بينـه وبين صديقيـه الحـلاق والقس مناقشات مثيرة حول الموضوع الذي يلذّ له الحديث عنه ـ وهو الحاجة الى الفرسان في العالم مرةً أخرى، وكيف أنّ (دون كيخوته) نفسه هو الرجل المنـاسب لأن يكـون فارسـاً. وطـوال ذلـك الوقت، كان يقوم بتدبيرات سرية مع رجلٍ يعيش في القرية اسمه (سنشو بنثا). وكان هذا رجلاً ريفياً فقيراً مسكيناً ولكنه أحمق بقدر الفارس العجوز.

اصغى الـرجـل السـاذج الى قصص (دون كيخـوتـه) عن مغـامـراته العظيمة ووافق في النهاية أن يرافقه باعتباره تابعاً له.



ولقد كان مستعداً لفعل ذلك، لأنّ سيده الجديد وعده بأن يجعله حاكماً على جزيرةٍ بأسرع ما يمكن.

أصلح (دون كيخوته) درعه مرة اخرى. وحصل على رمحٍ جديد. وفي هذه المرة قرر حمل بعض النقود معه، ثم أخبر مرافقه بالاستعداد للرحلة. ولقد رغب (سنشو)، الذي كان قصيراً وبديناً وغير معتادٍ على المشي على القدمين، في أن يجلب حماره. قائلاً إنّه ممتاز، ولقد انزعج الفارس من هذا الامر، فهو لم يقرأ مطلقاً عن تابعٍ يركب حماراً، ولكنه وافق في النهاية، بعد أن قرر أنّه سيحصل على حصان لمرافقه بأسرع ما يمكن، وذلك بسلبه من أول فارسٍ شرير يلتقيان به.

وعندما تمّ إنجاز كل شيء، ابتدأ رحلتهما معاً في إحدى الليالي من دون أن يودعا احداً. وعندما اشرقت الشمس كانا قد ابتعدا بما فيه الكفاية لكي يلحق بهما أحد. ولقد كان (سنشو بنثا) لا يفكر الا في الجزيرة التي وعده سيده بها، أما (دون كيخوته) فلقد كان يفكر في أمورٍ أكثر نُبلاً.

حتى تنبه من أحلامه على صوت تابعه الذي قال له:

- «اتمنى يا صاحب السعادة أنكم لم تنسوا موضوع الجزيرة. فأنا ساعرف كيف أحكمها بالعدل مهما كبر حجمها.»

فأجابه (دون كيخوته):

- «لا تقلق بشأن هذا الامر، فلقد كان الفرسان يمنحون دائماً تابعيهم هدايا من الارض، ولكني سأفعل شيئاً أفضل منهم. وبدلاً من أن انتظر حتى تصبح عجوزاً ومتقاعداً عن خدمتي، فإني سأكافئك باسرع ما يمكن، بل ربما قبل أنْ يمرّ اسبوع من الزمن ستكون حاكماً لجزيرةٍ.»

فقال (سنشو):

- «هـذا حسن، واذا حدث مثـل هذا الشيء الـرائع فإنّ زوجتي (جوان) ستصبح ملكةً وأولادي أمراء.»

فردّ عليه (دون كيخوته):

- «ومن يشك في ذلك؟»

فقال (سنشو):

- «أنا! فلا شيء يمكن أن يجعل من زوجتي ملكةً!».

فأجابه (دون كيخوته) جاداً:

- «لا تتواضع الى هذا الحد يا (سنشو)، فإنك ستنال شرفاً عظيماً.»

فقال (سنشو):

- «إنك لكريم جداً، سآخذ ما تعطيني اياه وسأكون شاكراً، فأنا اعرف أنك لا تحملني ما يفوق طاقتي.»



معركة طواحين الهواء

كانا يتحدثان على هذا النحو، حتى وصلا قمة تل صغير، ورأيا أسفلهما ثلاثين او اربعين طاحونة هواء تقريباً وخالما رآها (دون كيخوته) حتى قال لتابعه:

ـ «أيها الصديق (سنشو) يبدو أننا محظوظان هذا اليوم! . إنَّ هنالك ثلاثين أو اكثر من العمالقة الكبار، سأنازلهم في الحال واقتلهم فرداً فرداً، وسنحتفظ بكل ممتلكاتهم. إنَّ المنتصر قد يفعل ذلك، وستكون خدمةً طيبة نؤديها للرب عندما اقتل هذه المخلوقات الشريرة..»

فقال (سنشو بنثا):

ـ «أيّ عمالقة تعني؟»

فأجابه السيد:

ـ «اولئك الذين تراهم هناك... إن لبعضهم أذرعاً يتجاوز طولها ستة أميال احياناً.»

فصرخ (سنشو):

ـ «ما الذي تفكر به يا صاحب السيادة؟ إنّها طواحين هواء لا

عمالقة، وإنّ أذرعها ـ كما تُسميها ـ هي أشرعتها التي تتحرك من حولها بوساطة الريح.»

فقال (دون كيخوته):

ـ «أمامك الكثير الذي يجب أن تتعلمه حول مغامرات الفرسان. إني اقول: إنها عمالقة، فإذا كنت خائفاً فأبتعد واقض وقتك بالصلاة في حين أخوض أنا هذه المعركة الشرسة غير المتكافئة.»

وعندما انهى كلامه اندفع نازلاً التل من دون أن يصغي الى صرخات (سنشو) الذي استمر يصيح قائلاً: إنَّ هذه ليست سوى طواحين هواء، ولكن الفارس اندفع صارخاً بأعلى صوته:

ـ «لا تهربوا أيها الجبناء، فليس هناك سوى فارس واحد جاء لمهاجمتكم.»

وفي تلك اللحظة هبّت الريح وابتدأت الأشرعة بالدوران.

ـ «أترفعون أذرعكم؟ لو كانت لديكم مائة ذراع فسأهاجمكم أيضاً.»

ثم أندفع. وهو يهتف بأسم سيدته (دلثينيا)، تجاه أقرب طاحونة، بحيث اخترق رمحه الشراع الأسفل وتكسر الى قطع في حين ضرب الشراع الحصان وراكبه عندما استدار فتدحرجا بعنفٍ على الأرض.

ـ «ليخمنا الله!» هتف (سنشو) الذي تبعه قدر ما سمح له حماره بالتقدم، فوجد سيده مضطجعاً بهدوء الى جانب (روثينانته).

ـ «ألم أقل لسيادتك: إن هذه الاشياء هي مجرد طواحين هواء وليست عمالقة على الاطلاق؟». لا يمكن لأحد أنْ يُخطيئها إلا اذا كان رأسه ممتلئاً بالأفكار المجنونة.»



فأجاب (دون كيخوته):
- «أصمت يا (سنشو) ألا تعرف أنَّ كل شيء يمكن أن يتحول فجأة في المعركة؟ أنا متأكد أن الساحر الشرير (فرستون) الذي سرق كتبي هو المسؤول. لقد مسخ اولئك العمالقة إلى طواحين لكي يسلبني شرف التغلب عليهم. ولكن ستبوء، في النهاية، كلّ خُططه الشريرة بالفشل»

فرّد (سنشو) وهو يساعد سيده على النهوض:
- «قد يكون الامر كذلك».

ثم امتطى الفارس (روثينانته) الذي كادت اكتافه تتكسر من هول الضربة. ثمّ توجه الى منطقة عالية حيث يقطع الطريق الواصل بين مدريد والاندلس منطقة جبلية. فلقد اعتقد (دون كيخوته) بأنه سيصادف الكثير من المغامرات في مثل تلك المنطقة. قضيا تلك في غابة صغيرة وقطع (دون كيخوته) غصناً جافاً من إحدى الأشجار ليصلح به رمحه. ثمَّ، ومثل عاشقٍ وفي وفارس مُهاب، قام بالحراسة في ساعات الظلام.. مفكراً بسيدته (دلثينيا). أمّا (سنشو) الذي شرب نصف قنينة من الخمر الذي جلبه معه، فلقد نام طوال الليل من دون أن يتحرك قيد أنملة.

معركة «دون كيخوتة» مع المزارع

في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي تقريباً، وصلا الى المكان الذي تقطع فيه الطريق الممتد من مدريد الى الاندلس الجبال. عندها استدار (دون كيخوته) إلى تابعه وخاطبه:

- «هنا أيها الأخ (سنشو) سنقوم بالمغامرات التي نتمناها. وتذكّر أنك يجب ألّا تسحب سيفك دفاعاً عني، حتى لو رأيتني أتعرض لخطر الموت، إلّا اذا هاجمني عامة الناس. أمّا اذا كانوا فرساناً فإن قوانين الفروسية تمنعك من قتالهم حتى تُنصَّب أنت فارساً».

فقال (سنشو):

- «لا تقلق بشأن هذا الامر يا سيدي، سأطيعك، فأنا مسالم بطبعي، وأكره الخصومات والأقتتال، ولكن اذا هوجمت فإني سأدافع عن نفسي في الحال، من دون أن أتوقف لأسال عن المهاجم: أهو فارس أم لا؟

وردّ (دون كيخوته):

- «بالطبع، إنّ بامكانك أن تفعل ذلك.»

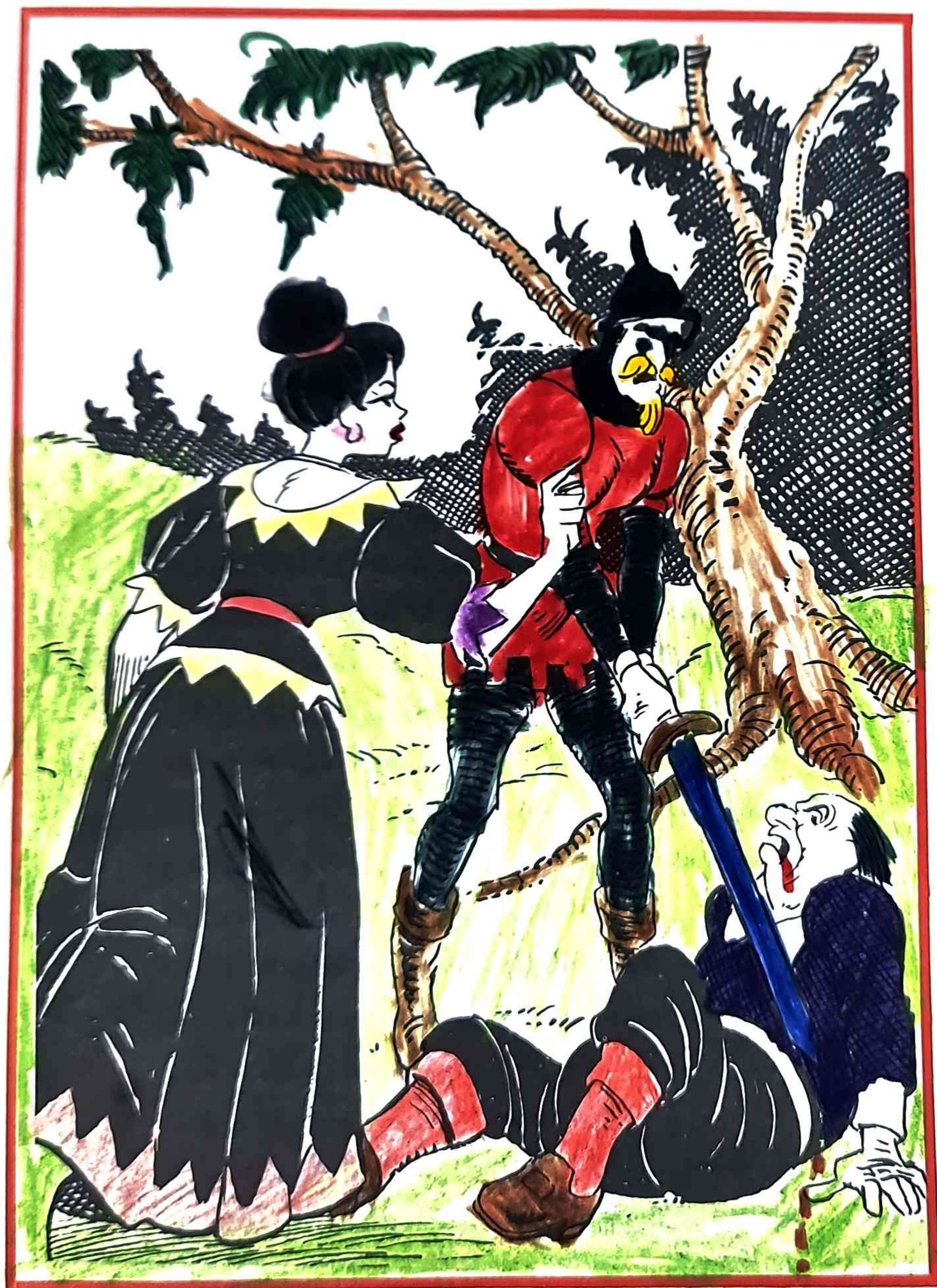
وفي حين كانا يتحدثان على هذا النحو، رأيا قسّين قادمين على الطريق راكبين على بغلين كبيرين، وقد غطّيا وجهيهما إلى النصف ليقيا عيونهما من الغبار، في حين كانت ثمة عربة وأربعة اشخاص أو خمسة على ظهور الخيل خلفهما مباشرة ومعهم بعض البغالين الذين كانوا يمشون الى جانب بغالهم. وفي العربة كانت هناك سيدة في طريقها الى (اشبيلية) لمقابلة زوجها. وكان القسان لا يعرفان تلك المرأة، على الرغم من أنّ الجميع كانوا يسافرون معاً مصادفة وبسبب القناعين على وجهيهما كانا يبدوان غريبي الشكل. وعندما رآهما (دون كيخوته) صرخ بسنشو:

- «ما لم أكن خدعت، فإنّ هذه لأكثر المغامرات غرابة. إنّ هذين الرجلين من دون شك. ساحران شريران قاما بسجن أميرة وأجبراها على الصعود في هذه العربة. إنّ واجبي يدعوني لانقاذ هذه السيدة النبيلة.»

فقال له (سنشو) قلقاً:

- «احذر مما تفعله يا سيدي وإلا ستتعرض الى مشاكل أسوأ مما تعرضت لها مع طاحونات الهواء. إنّ هذين الرجلين قسان والآخرين اللذين معهما مسافران تلك المرأة، على الرغم من أنّ الجميع كانوا يسافرون معاً مصادفة وبسبب القناعين على وجهيهما كانا يبدوان غريبي الشكل. وعندما رآهما (دون كيخوته) صرخ بسنشو:

- «ما لم أكن خدعت، فإنّ هذه لأكثر المغامرات غرابة. إنّ هذين الرجلين من دون شك. ساحران شريران قاما بسجن أميرة وأجبراها على الصعود في هذه العربة. إنّ واجبي يدعوني لانقاذ هذه السيدة النبيلة.»



فقال له (سنشو) قلقاً:

- «احذر مما تفعله يا سيدي وإلا ستتعرض الى مشاكل أسوأ مما تعرضت لها مع طاحونات الهواء. إنّ هذين الرجلين قسان والآخرين اللذين معهما مسافران عاديان. إنَّ الشيطان بالتأكيد هو الذي يوسوس لك بمثل هذه الافكار.»

فأجاب (دون كيخوته):

- «لقد أخبرتك مسبقاً أنك لا تعرف شيئاً حول مغامرات الفرسان، وسترى أني قد قلت الحقيقة.»

وبهذه الكلمات تقدم الى الامام، ثُم توقف في منتصف الطريق وصرخ بالقسين بصوتٍ عال:

- «توقفا يا ولدي الشيطان. وأطلقا سراح السيدة النبيلة التي تحملانها بالقوة في العربة، فإذا رفضتما ذلك فإنكما ستموتان هنا وفي هذه اللحظة جزاءً وفاقاً لشروركما.»

توقف القسان وقد دُهشا من ظهور (دون كيخوته) وكلامه الغريب، وأجابه أحدهما:

- «سيدي أيها الفارس، نحن لسنا ولدي الشيطان بل نحن قسّان ونحن لا نعرف شيئاً عن الاميرة التي تتحدث عنها ولا ندري أكانت هنالك واحدة في العربة ام لا؟

- «لا فائدة من خداعي.» أجاب (دون كيخوته)، ومن دون أن يضيف كلمة أخرى، اندفع نحو أقرب قسّ وأراد أن يضربه برمحه بعنف، بحيث لو لم ينقذ القس نفسه بالقفز من بغله، لكان قد قتل أو جرح في الاقل جرحاً بليغاً.

أمّا القس الآخر الذي رأى صاحبه يهاجم بهذه الطريقة، فإنه هرب ببغله بأسرع ما يمكن، في حين بقي الآخر مضطجعاً حيث سقط. وعندما رأى (سنشو) ذلك، نزل وابتدأ يخلع

ملابس القس في حين كان مشغولاً بعمل ذلك، تقدم خادما القس وسألاه عن سبب فعلته هذه، فأجاب بأنه يفعل ذلك وفق أصول الفروسية، إذ أنّ سيده (دون كيخوته) قد تغلب على عدوه في معركة. لم يفهم الخادمان كل هذه المحادثة المتعلقة بالفرسان والمعارك، ولم يعتقدا بأن الأمر مجرد هزل، لذلك ضربا (سنشو) المسكين حتى فقد وعيه وكاد، يفقد أنفاسه.

استغل القس ذلك، وركب على بغله مرة ثانية وهو يرتجف، ولحق بأسرع ما يمكن بصاحبه الذي كان واقفاً ينتظره من مسافة لا بأس بها.

ومن ثمَّ، ومن دون أن يراقبا نهاية المعركة، استمرا برحلتهما، فرحين لهروبهما بجلديهما.

وفي حين كان يحدث ذلك، كان (دون كيخوته) يقف في باب العربة وهو يتحدث الى السيدة المسكينة المفزوعة:

- «سيدتي الجميلة النبيلة!، أنت حرة في أن تفعلي ما تشائين. إنَّ أعداءك القساة الاشرار أصبحوا الآن ضعفاء عديمي الحيلة. فلقد قهرتهم قوتي وشجاعتي. أتودين معرفة الشخص الذي أنقذك؟ أنا أدعى (دون كيخوته دلا منتشا) الفارس الخادم لأجمل سيدة، (دلثينا ديل توبوسو). وأنا لا اطلب إلّا جميلاً صغيراً مقابل خدمتي هذه. أرجوك أن تذهبي في الحال الى (توبوسو) فتخبري ملكة قلبي هناك بأنك مدينة بحريتك لها.»

ومن بين الركّاب، كان هنالك مزارع من شمال اسبانيا سمع ما قاله (دون كيخوته). فإذا وافق المسافرون على زيارة (توبوسو) فإن عليهم أن يبتعدوا كثيراً عن طريقهم، لذلك أمسك برمح الفارس وصاح:

- «ابتعد يا سيد ودع العربة تمرّ وإلّا غرزت هذا السيف فيك!»

فأجابه (دون كيخوته) بهدوء شديد :
- «إذا كنت فارساً ونبيلاً ، وأنت لست كذلك ، فإني سأعاقبك على شجاعتك الحمقاء . »
- «لست نبيلاً؟» صرخ المزارع بغضب .
- «اخفض رمحك وأستل سيفك ، وسنقرر في الحال حقيقة ما تقول . »

اسقط (دون كيخوته) رمحه واستل سيفه ، ودافع المزارع عن نفسه على نحو ممتاز ، وبدأا يضربان بعضهما كما لو أنهما كانا عدوين لدودين طوال حياتهما . وكان من المستحيل على الآخرين فصلهما ، لأن المزارع أقسم بالله انّه لو أوقفه أحدهم ليقتلنَّ الجميع .

وجه المزارع ضربة قوية سقطت على كتف (دون كيخوته) ، ولولا درعه لقسمته نصفين . وعندما أحسّ الفارس بقوة تلك الضربة الهائلة صرخ بصوت عالٍ :
- «يا ملكة قلبي (دلثينا) ، ساعدي فارسك الذي يُواجه مثل هذه المخاطر الهائلة لكي يكسب عطفك . »

وبقوله ذلك ، غطّى نفسه بدروعه جيداً وهاجم المزارع مرة أخرى .

ووجّه المزارع ضربة عظيمة لدون كيخوته ، لو أنّها سددت جيداً ، لأنهت حياة الفارس في تلك اللحظة . ولكن الضربة وقعت على الكتف اليسرى ، فقطعت قسماً من الخوذة ونصف أذنه ، ومزّقت الدرع على ذلك الجانب . »

ليس هناك من كلمات يمكن أن تصف الغضب الذي ملأ قلب (دون كيخوته) عندما سمع صوت سقوط درعه وشعر بفقدانه لنصف أذنه ، فأمسك بسيفه بكلتا يديه وأنزله بعنف على

رأس المزارع بحيث إنّ المزارع لم يُنقذ نفسه إلّا بانحنائه، وذلك برميه ذراعيه حول عنق البغل. وانفجر الدم من أنفه وفمه وأذنه، وفزع البغل من هول الضربة، فاندفع بعيداً وهو يرفس متوحشاً بحيث إن راكبه سقط منه في الحال على الأرض.

عندما رأى عدوه يسقط، قفز (دون كيخوته) من حصانه وأسرع تجاهه ووقف فوقه، والسيف في يمينه وهو يصرخ:

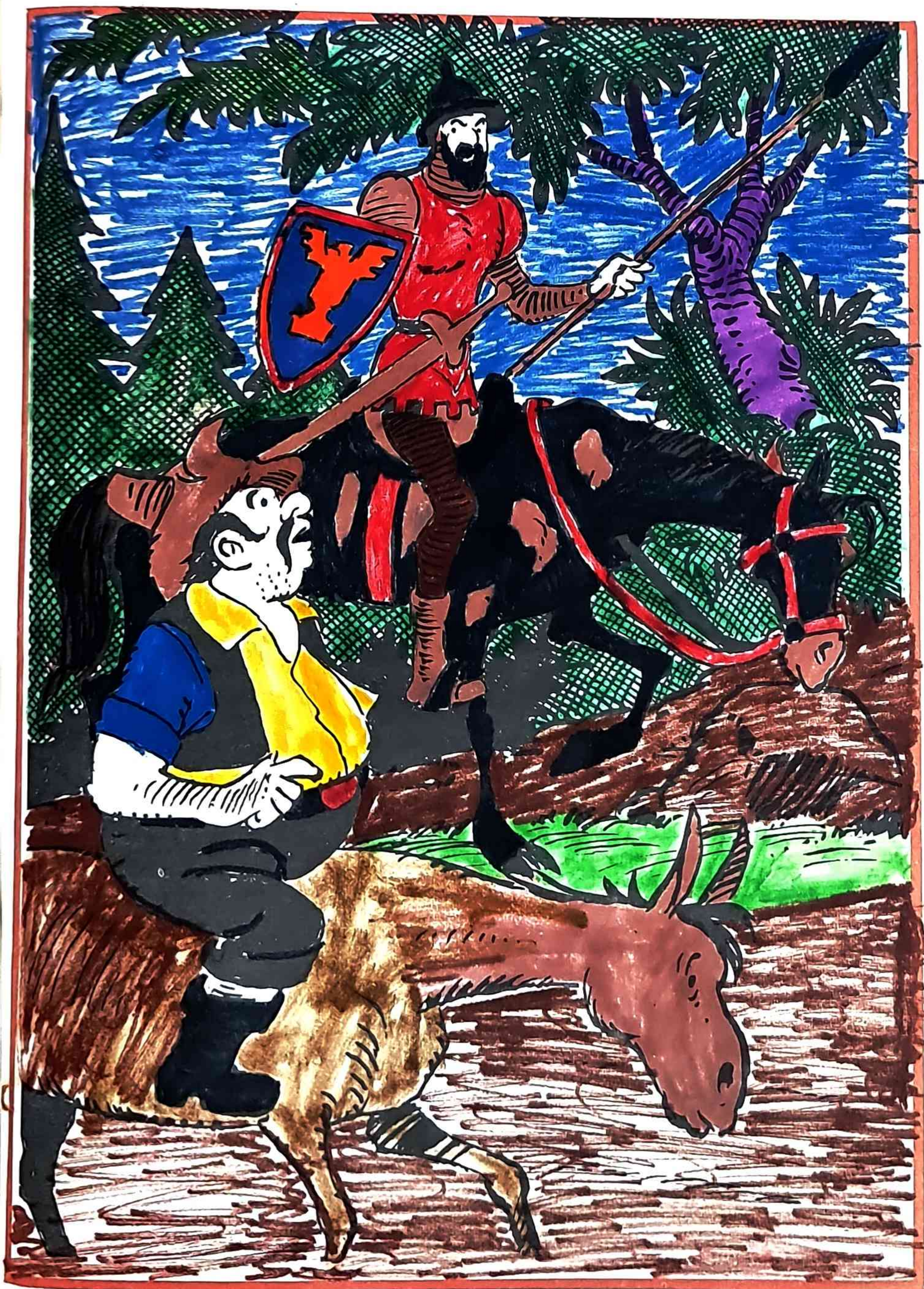
- «اطلب الرحمة وإلا قطعت عنقك!

كان المزارع متألماً جداً فلم يستطع أن يجيب، وكان (دون كيخوته) غاضباً بحيث كان من الممكن أن يقتل المزارع. ولكنّ السيدة أسرعت في تلك اللحظة وتوسلت إليه ألا يسلب المزارع حياته.

فأجابها (دون كيخوته).

- «أنا مسرور جداً أن أفعل ما يطلب مني ولكن على شرط واحد. إنّ هذا المزارع يجب أن يقسم لي بأنه سيذهب في الحال الى (توبوسو) ويزور السيدة (دلثينا) لكي تفعل به ما يحلو لها.

وعدت السيدة المرعوبة المسكينة بأن يتم ذلك من دون ان تزعج نفسها بالسؤال عمن تكون (دلثينا) هذه، وبهذا الوعد اقتنع (دون كيخوته) تماماً.



محادثة بين «دون كيخوتة» و «سنشو»

دهش (سنشو) وهو يُراقب القتال بين سيدِه والمزارع . وكان ذهنـه ممتلئـاً بوعود سيده ، وهكذا اتجه نحوه ثم ركع ونظر الى وجه سيده ، فسأله (دون كيخوته) :

ـ «ماذا تريد يا (سنشو)؟» .

أمسك (سنشو) بيد الفارس وقال :

ـ «اجعلني حاكم الجزيرة التي ربحتها في قتالك العظيم هذا . وبغض النظـر عن حجمهـا . فإني أشعر بأني لقادر على حكمها بعدلٍ وثبات مثل حاكم أية جزيرة وفي أي مكان . »

وأجاب (دون كيخوته) بجدية تامة :

ـ «أيهـا الأخ (سنشـو) يجب أنْ تُدرك أنَّ هذه المغـامـرة التي شهـدتهـا ، كانتَ مجرد لقاء بالمصادفة على الطريق . وأنَّ مثل هذه المغامرات لا تجلب أية غنائم باستثناء رأس محطّم أو أذنٍ مقطوعة .

كن صبـوراً وسنجـابـه قريبـاً مغامرات ستجلب لك الغنائم

وأموراً أخرى الى جانبها.»

شكر التابع سيده، وأكملا طريقهما، وفي حين كانا يسيران قال (سنشو) - «يبدو لي يا سيدي أنّنا يجب أنْ نختبيء إذ إنّ ذلك الشخص الذي ضربته سيشكونا لضُبّاط الملك. فإن أمسكوا بنا، فربما يجب علينا أنْ نبقى في السجن لعدة أيام».

فأجاب (دون كيخوته):

- «لا تتحدث بهذه الطريقة الحمقاء. هل سمعت او قرأت عن فارس عُوقب لقتله رجلاً في قتال عادل؟. لا داعي للخوف من ضباط الملك، وأخبرني: هل رأيت فارساً أشجع منّي؟».

فقال (سنشو):

- «أنت على صواب. فأنا لم أحذم في حياتي سيداً شجاعاً مثلك، ولكني آمل ألّا نُضطر لدفع ثمن شجاعتك في السجن. ولكن دعني أتفحص أذنك، فلديَّ بعض قطع القماش في الحقائب، وربما أستطيع إيقاف نزيف الدم.»

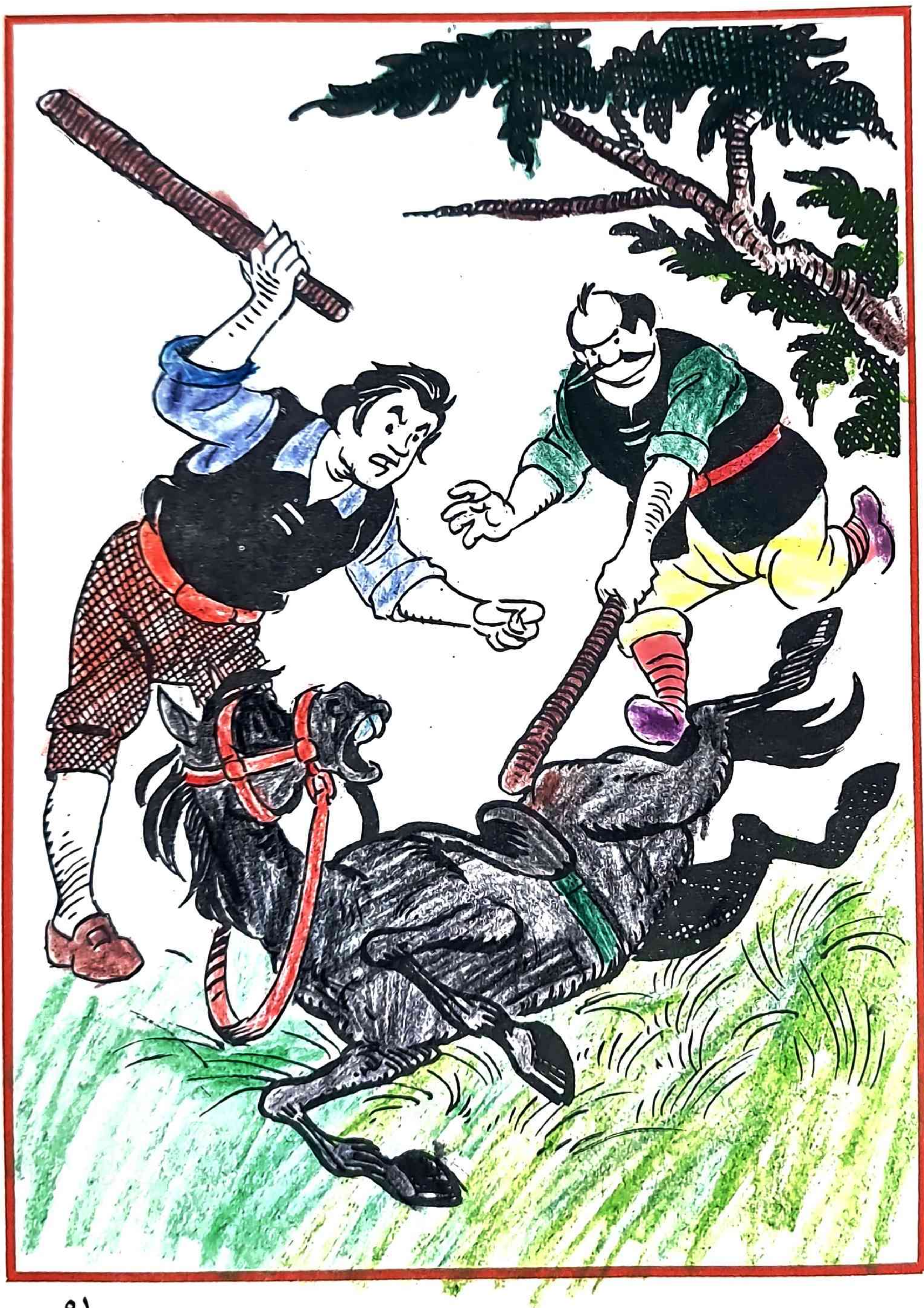
- «لا داعي لذلك، ولو تذكّرت لجلبت قنينة من بلسم (فييرا براس) السحري، فقطرة واحدة منه تشفي أذني في الحال.

وقال (سنشو) دَهشاً:

- «بلسم سحري؟»

فردّ (دون كيخوته):

- «بلى، إنّه أروع بلسم، وأعرف طريقة صنعه. وأنّ أي شخص يمتلك هذا البلسم يستطيع أن يسخر منْ الموت والجروح. سأصنع منه قريباً وسأعطيك اياه وأعلّمك كيف تستعمله، فعندما تراني قد قُطّعت إلى نصفين في معركةٍ ما (وهو أمرٌ غالباً ما يحدث)، عندها يجب أن ترفع ببطء الجزء الساقط من جسدي وتضعه بعناية وبالضبط على الجزء الآخر



الـذي بقـي على الـحصـان، ثم تسقيني قطـرتين من البلسم السحري، وفي لحظة سأكون بخير مرة ثانيةً. ».

قال (سنشو):

- «حسن، أنا لا أريد جُزراً لأحكمها إذ كنت تعرف سرّ مثل هذا الدواء، إذ إنّ كمية قليلة منه ستجعلني رجلاً ثرياً. »

وردّ السيد:

- «ستتعلم السـر قريبـاً، وأسـرار عُظمى أيضـاً لكنَّ الآن اعتن بجراحي قدر ما تستطيع، فإنها تؤلمني باكثر مما استطيع البوح به. »

اكتشف (دون كيخـوتـه) للمـرة الأولى أنَّ خوذته قد كُسرت فركبه الغضب ورفع سيفه قائلاً:

- «أقسم إنّي ما لم أثأر لنفسي من ذلـك الـرجـل الشـريـر الذي عاملني بهـذه الطـريقـة، فلن آكل خبزاً على مائدةٍ أو أنام تحت سقفٍ او... » ولكنـه لم يستطـع إكمـال عبـارتـه، إذْ خذلتـه الكلمات ولكنَّ عينيه كانتا ما تزالان تدوران بغضب.

أرعبت هذه الكلمات الغاضبة (سنشو) فقال:

- «اعتقـد يا سيـدّي بأنـه إذا أطاع المزارع أوامرك وزار سيدتك في (تـوبـوسـو) فسيكـون قد نفّـذ كل ما طلبت منـه القيـام به، ولـذلـك يجب ألاّ تعـاقبـه أكثـر من ذلـك ما لم يكن قد أرتكب جناية أخرى. »

فأجابه (دون كيخوته):

- «أنت على صواب. حقاً يجب ألاّ انتقم من الرجل أكثر، ومع ذلـك، أقسم بالله إنّي سأعيش بهـذه الطريقة حتى أكسب خوذة أخرى، بجودة هذه نفسها، من فارس أو أي شخص آخر. »

فهتف (سنشو):

- «فكّر بما تقول يا سيدي. افترض أنَّ أياماً عديدة مرت قبل أنْ نرى مثل هذه الخوذة التي تصفها، فما الذي سنفعله؟ إلى متى ستظلّ تنام بملابسك، وتضطجع في العراء في أثناء الليل، وتفعل الأشياء الحمقاء الأخرى التي تتحدث عنها؟ إننا في هذا الجزء من البلاد لن نلتقيَ إلّا برجال يقودون العربات أو البغال، وهؤلاء لا يرتدون خُوذاً على الاطلاق، بل إنهّم ربما لم يسمعوا بمثل هذه الاشياء على الاطلاق طوال حياتهم.»

أجابه (دون كيخوته):

- «أنت مُخطيء. لن تمّر ساعتان ونحن في هذا الطريق حتى نرى فرساناً وجنوداً أكثر من جند ملوك الصين العظام. وستكون أعظم من أي شيء تخّيلته في اكثر أحلامك غرابة وأثرى منه ولكن أبحث في حقائبك الآن، وحاول أن تجد شيئاً نأكله، وبعد ذلك، سنبحث عن قلعة نستطيع أنْ نُقضّي الليل فيها.»

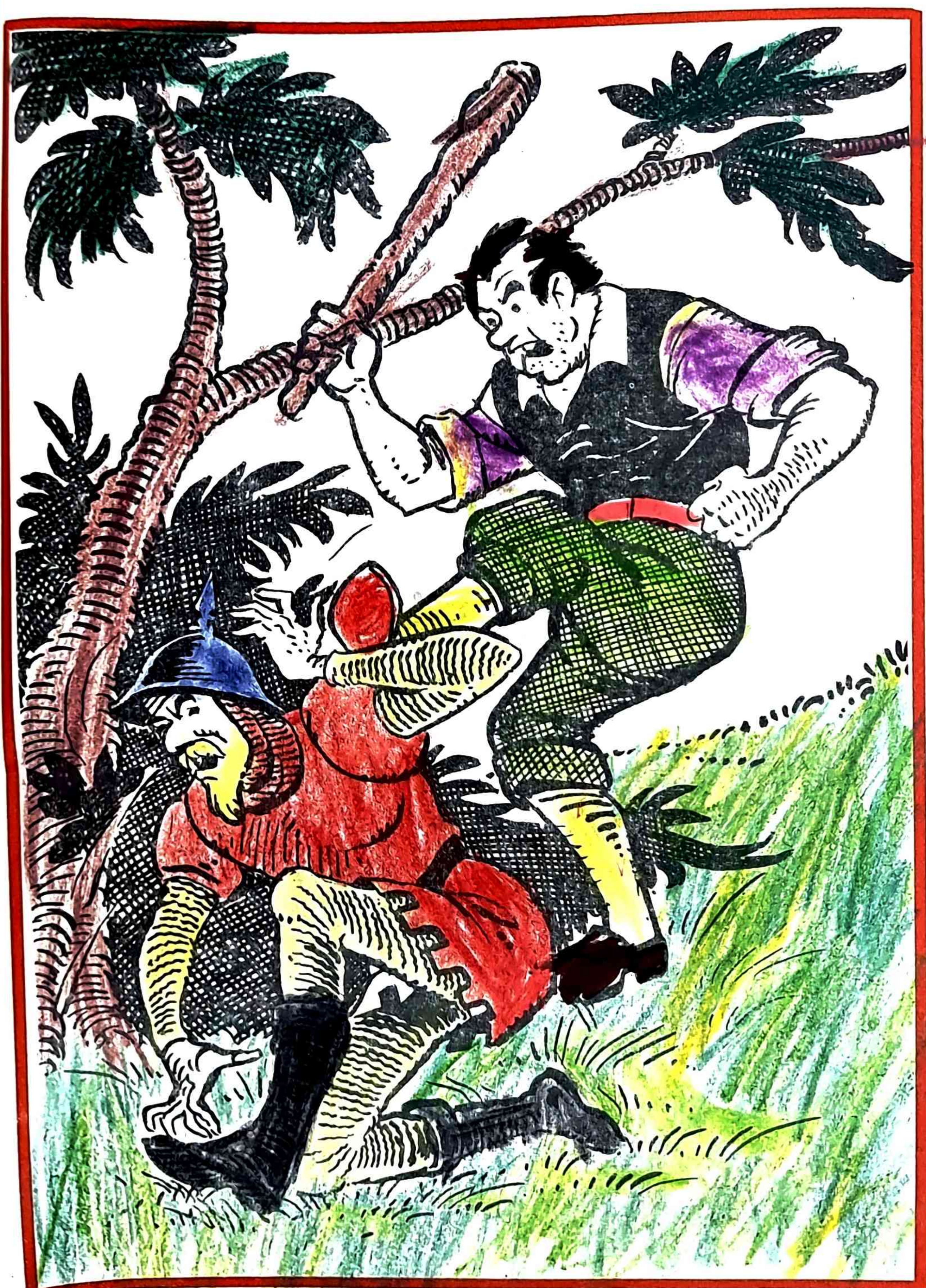
- «هذا كل ما أملكه» قال (سنشو) وهو يخرج قطعاً صغيرة من الخبز من الحقيبة ثمَّ أضاف:

«إنّ هذا لطعام بائس جداً لا يليق بمقام فارس».

فأجابه (دون كيخوته):

- «أنت مخطيء مرة أخرى. إنَّ الفرسان لا يحتاجون طعاماً جيداً وهم يعتقدون أنَّ من الشرف العيش بدون طعام لعدة اسابيع في كل مرة. وعندما يأكلون فانهم يرضون بأبسط أنواع الطعام الذي تقع يدهم عليه.»

عندما أنهيا عشاءهما المتواضع، جداً شُغِلا في البحث عن القعلة التي تحدَّث عنها (دون كيخوته))، ولكنهما لم يجدا أيّ شيء، لذلك أضْطرّا لقضاء ليلتهما في كوخ يعود لبعض الرعاة.



دون كيخوتة والحمالون

استمر الفارس وتابعه في السير في اليوم التالي، حتى وصلا منتصف النهار تقريباً إلى ساقية رائعة تُظلها الاشجار على الجانبين. ولأنَّ الجو كان بارداً في ظل الاشجار، فقد قررا أن يستريحا هنناك حتى تنزل الشمس الى الأفق.

وتركا (روثينانته) والحمار يرعيان العشب الاخضر، في حين جلسا ليتناولا طعامهما.

كان بعض الحمالين يرتاحون أيضاً على مسافة ليست بعيدة عنهما، وكانت خيولهم ترعى قرب الساقية أيضاً. وعندما ذهب (روثينانته) قرب الخيول رفسته وأبتدأ (روثينانته) بالرفس أيضاً. ولقد حُسم الأمر من قِبل الحمالين الذين أسرعوا لانقاذ خيولهم، إذ كانت عندهم قضبان ثقيلة فهاجموا (روثينانته) بعاصفة من الضربات حتى تركوه فاقد الوعي ساقطاً على الارض.

بعد أنْ رأى حصانه وقد عومل بهذه الطريقة، خفَّ (دون كيخوته) لنجدته صارخاً بسنشو أنْ يلحق به قائلاً: «إنَّ هؤلاء

ليسوا فرساناً بل من عامة الناس، ومن المباح لك أنْ تساعدني في الثأر لروثينانته منهم.»

فردَّ (سنشو) وقد انقطعت أنفاسه:

ـ «وأنّى لنا ونحن أثنان أنْ نثأر من أكثر من عشرين شخصاً؟»

فأجابه (دون كيخوته):

ـ «أنا أعدلُ مائة رجل.»

وفي الحال هاجم الحمالين والسيف بيده. ولقد شجّع ذلك (سنشو) ففعل الشيء نفسه، وبالضربة الأولى شقّ (دون كيخوته) الصدرية الجلدية لأحد الحمالين وجرحه في الكتف، ولكنَّ الآخرين، عندما رأوا أنهم قد هُوجموا من قبل شخصين وهم عشرون أحاطوا بهما من كل جانب. وفي الحال أسقطت (سنشو) ضربة قويّة، وبعد فترة سقط (دون كيخوته) متمدداً بطوله الى جانب سنشو وهكذا تمدّد الفارس وتابعه وحصانه وقد تغلب عليهم الحّمالون.

ابتدأ الحمالون، الذين تلاشى غضبهم، يقلقون مما فعلوه. ففكّوا بسرعة البضاعة من على ظهور خيولهم وأسرعوا هاربين معتقدين بأنَّ الرجلين والحصان قد ماتوا.

مرَّت ساعات الظهيرة الحارة، وأصبح كل شيء هادئاً إلى جانب الساقية الرقراقة، ثم تردّد صوت واهن تعيس، كان صوت (سنشو بنشا) وهو يقول:

ـ «آه يا سيدي (دون كيخوته)، آه يا سيدي (دون كيخوته).»

فأجابه (دون كيخوته) في صوت ضعيف وحزين أيضاً:

ـ «ماذا تريد يا (سنشو)؟»

ـ «أودّ لو أنَّ سيادتك يسقيني بعضاً من ذلك البلسم السحري



الـذي تحـدثت عنـه إذا توفـر لديك، فربما يكون مفيداً للعظام المكسورة كما للجروح.»

فرد (دون كيخوته) حزيناً:

- «لو كان عندي ذلك البلسم لكُنا الآن بخير. ولكن انتظر حتى أستطيـع التحـرك. فإنّ أول شيء أفعله هو أنّي سأحضـر بعض هذا البلسم.»

وسأله (سنشو):

- «وكم سيستغرق إحضاره قبل ان نتمكن من مغادرة هذا المكان؟»

فأجابه الفارس التعيس:

- «من الصعب التكهن بذلك، فلقد ضُربنا بطريقةٍ سيئةٍ، وكان الخطأ خطئي. كان المفـروض أن أتـذكـر أنّ الفارس يجب ألاّ يستـل سيفـه على عامـة الناس. إنَّ هذا هو السبب الذي جعلنا نعـاني بهـذه الطـريقة. وفي المستقبل سأترك لك قتال الأعداء من العـامـة واتفـرغ لقتال الفرسان فقط، فلقد رأيت من قبل ما بإمكاني أن أفعل ضد الفرسان.»

لم يكن (سنشو) سعيداً بتقسيم الواجبات على هذا النحو فأجابه:

- «سيدي، أنا لست برجل حربٍ مثلك، بل رجل مسالم، كما يجب أن يكـون الأب والـزوج. لذلك أرجو أن تلاحظ أني من اليـوم فصـاعداً سأعفو عن كل الرجال، ممن كانوا أو سيكونون أعدائي، سواء أكانوا سادة أم فرساناً أو من عامة الناس.»

انزعج (دون كيخوته) كثيراً لسماعه هذه الكلمات، فصاح به:

- «أيّ جبـان أنت!. كيف يمكن أن تكـون حاكمـاً لجـزيـرة أو مملكـة؟ إنّ الحـاكم العظيم يجب ألاّ يخشى من أي شيء ومن

أي مخلوق . »

فأجابه (سنشو) :

- «أنا لا أطمح للشجاعة اذا كانت جائزتها الوحيدة عظام مطحونة . حاول يا سيدي النهوض، وسنرى إنْ كان بإمكاننا إيقاف (روثينانته) على أرجله مرة أخرى . إنَّ الحياة مليئة بالمفاجآت ، فمن كان يُصدق أننا سنضطجع هنا في هذه الحالة التعيسة بعد نجاحك الباهر على عدوك البارحة . »

فقال (دون كيخوته) :

- «يجب أن تفهم أنَّ هذه حوادث يمكن أن يتعرض لها الفرسان . »

أجاب (سنشو)

- «هل الامر كذلك؟ . إذن دعني أطلب من سيادتكم أنْ يُخبرني عن العدد المحتمل لمثل هذه الحوادث . إذ إنَّ حادثتين متقاربتين تكفيان لقتلنا من غير ثالثة . »

في تلك اللحظة ، جاء حمار (سنشو) الوفي ليستطلع الأمر . وبألم رهيب وجهد عظيم نهض (سنشو) على قدميه ، ولكنه عندما حاول الوقوف على نحو مستقيم أخفق تماماً ، وبأنحناءة مثل رجل عجوز، تمكن أنْ ينهض (روثينانته) على أرجله . وبعد محاولات عديدة تمكن من إركاب (دون كيخوته) على ظهر الحمار، حيث تمدد الفارس المسكين متدلياً من الجانبين .

قاد (سنشو) الحمار وسلك طريقاً قصيراً في حين كان (روثينانته) يتبعه بهدوء . وأخيراً وصلا إلى الطريق العام ، وعندما استدارا حول أحد المنعطفات صرخ (سنشو) بمتعةٍ :

- «هذه حانة ! »

فرّد (دون كيخوته) الذي كان يتدلى من على ظهر الحمار:

- «تعني قلعة!»

وأجابه (سنشو) غاضباً بعض الشيء:

- «قلت حانة!»

- «وأنا أقول قلعة!» ردّ الفارس مرة أخرى.

وفي حين كانا يتخاصمان وصلا إلى الباب.

المعركة العظيمة
مع جيش الشرف

يجب أن نمر بسرعة على مغامرات (دون كيخوته) في الحانة التي عدّها قلعة كالعادة، ولقد أدى اقتناعه الغريب هذا الى نشوء خصام عنيف، انتهى بتعرض الفارس الى الضرب الشديد من قبل حمّال كان موجوداً هناك. كما تعرض (سنشو) للضرب الشديد أيضاً.

وعندما انتهت المشاكل، ابتدأ (دون كيخوته) بصناعة البلسم السحري الذي توقع أنْ يقوم بأشياء مُدهشة. وكان خليطاً من أشياء غريبة جداً. تُمزج جيداً بعضها ببعض وتُغلى فوق النار. وعندما أصبح جاهزاً، قرر (دون كيخوته) أنْ يُجرب به على نفسه. وتناول جرعة كبيرة منه. ولقد سبّب له ذلك غثياناً شديداً، ولكن بعد أنْ نام لثلاث ساعات شعر بتحسنٍ هائل بحيث إنه قرر أنْ يغادر الحانة في الحال.

أمّا (سنشو)، وقد رأى أن صحة سيدة قد تحسنت مرة أخرى، فلقد تناول كمية كبيرة من البلسم أيضاً، ولكنَّ النتائج كانت مختلفة تماماً.

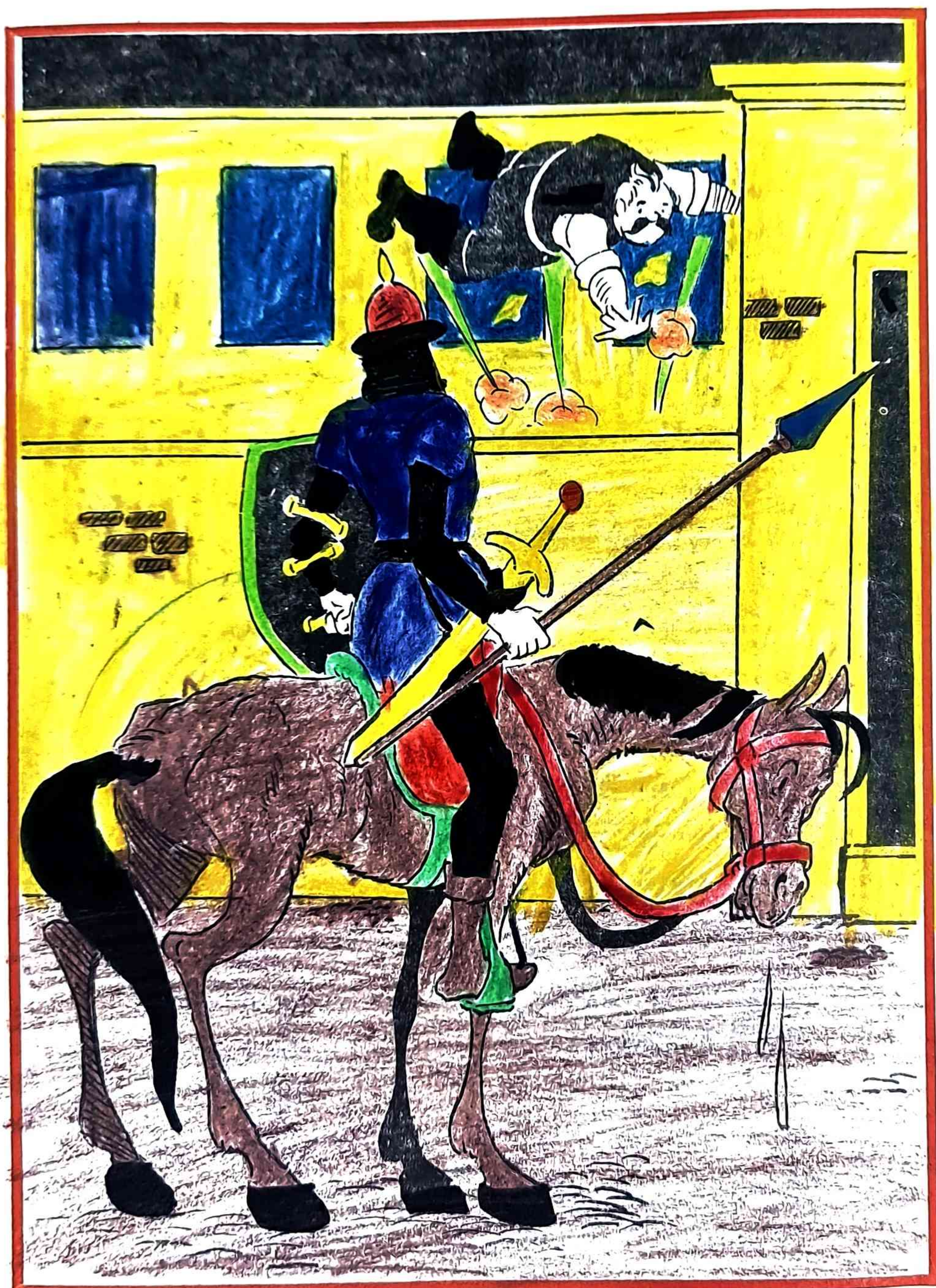
وبدلاً من أنْ يُصاب بالغثيان ابتدأ يعاني من ألم شديد جداً، واضطجع على السرير غير قادر على الحركة تقريباً، وأحس بالوهن الى درجةٍ تصوَّر معها أنّه سوف يموت. وعندما وجده سيده في هذه الحالة البائسة، قرر أنْ يهوّن عليه بالقول: إنَّ ذلك الدواء صالح للفرسان فقط، ثم مالبث أن ترك المسكين مضطجعاً هناك، وتوجّه الى الاصطبل ثم قاد (روثينانته) والحمار.

تجمع كل الناس الموجودين في الحانة عند البوابة، وتحدث (دون كيخوته) الى صاحب الحانة، الذي اعتقد أنّه سيد القلعة، شاكراً إياه على حسن وفائه عارضاً عليه القيام بأية خدمة يمكن أن يقوم بها فارس إرضاء له. فأجابه الرجل:

- «إنَّ كل الخدمة التي أطلبها هو أن تدفع ما أنت مدين به إليَّ.»

ولقد أغضب هذا الرد (دون كيخوته) كثيراً وقال لصاحب الحانة: إنك رجل شرير حين تعامل فارساً بهذه الطريقة الفظة، ثم ركب حصانه مبتعداً قبل أن يتمكن أيّ شخص من منعه.

وبعد أن ابتعد قليلاً، توقف لينظر ما سيفعله (سنشو). لكنه ما لبث أن سمع صرخات حادة صادرة من الحانة، كما لو أنَّ شخصاً ما كان يُضرب بقوة، فتوقع (دون كيخوته) مغامرة جديدة، وعندما عاد الى الحانة وجد البوابات مقفلة، فتوقف خارج الجدران، ودُهش ثم غضب عندما رأى أنَّ تابعه البدين يرتفع في الهواء ثُمَّ يسقط مرة أخرى. إذ إنّ نزلاء الحانة، وبعد أن رأوا أنَّ السيد قد هرب، ابتدأوا بالانتقام من الرجل، وقام بعض الخدم بتسلية أنفسهم وذلك برمي (سنشو) الى الأعلى



وإلى الأسفل في الهواء.

صرخ (دون كيخوته) بغضب من خارج الجدران مُهدداً بأنه سوف يقتلهم جميعاً، ولكنّ كلامه ذهب أدراج الرياح. فلقد استمرت اللعبة المُسرة حتى تعب الجميع، وسمح عندها لسنشو بالمغادرة. وبعد أنْ ركبَ على حماره، تبع (سنشو) سيده حزيناً.

قال الفارس وهو يمدّ له يده بقنينة البلسم السحري:

ـ «تناول جرعة من هذا، وستنسى في الحال كل الألم والمصائب.»

ولكن (سنشو) أظهر مزاجاً نكداً وسأله:

ـ «هل تريد أنْ تقتلني؟. احتفظ به لنفسك فأنا لاأريد المزيد منه.»

ثم استمرا بعد ذلك في السير بصمت لبعض الوقت، وفي النهاية تحدث (دون كيخوته) قائلاً:

ـ «أنا متأكد أنَّ تلك القلعة هي قلعة سحرية، وأنّ اولئك الأشرار الذين لعبوا معك تلك اللعبة الماكرة هم من عالم آخر.»

فأجابه (سنشو) الذي ابتدأ يفقد إيمانه بسيده بسرعة:

ـ«هذا كلام أحمق. إنهم بشر من لحم ودم مثلنا. إنّ من الافضل أن نعود الى بيوتنا ونعمل في الحقول. في حين نبحث عن الحظّ الطيب لا نجد سوى التعاسة، ولقد تعبت من هذه الرحلة الحمقاء.»

فقال (دون كيخوته) مُوبّخاً:

ـ «آه يا (سنشو)، كن شجاعاً وفكّر في اليوم الذي لم يعُد بعيداً عندما ننجح ونحرز شرفاً عظيماً وثراء.»

فردّ (سنشو) :

- «مثلما تقول باستمرار يا صاحب السيادة، ولكنك منذ أن أصبحت فارساً لم تُصب إلاّ نجاحاً واحداً، ولقد كلّفك ذلك نصف أذنك ونصف خوذتك. ومنذ تلك المعركة ولحد الآن لم نحصل على شيء غير الضرب.»

استمرا في المسير. وهما يتحدثان بهذه الطريقة، حتى رأيا سحابة كثيفة من الغبار تتجه نحوهما، فهتف (دون كيخوته) :

- «توقف، توقف يا (سنشو)، هنا في النهاية مكافأة كل ما عانيناه من مصائب. أترى سحابة الغبار تلك؟ لقد نشأت من أقدام ملايين الجنود.»

فردّ (سنشو) :

- «إذن، افترض أنَّ هنالك ملايين أخرى تأتي من الجانب الآخر أيضاً! وأشار الى الاتجاه المعاكس حيث كانت هنالك سحابة من الغبار أيضاً..

أجاب (دون كيخوته) وهو ينظر خلفه :

- «أنت على صواب، جيشان عظيمان يندفعان نحو المواجهة. الأول في مُقدمتنا بقيادة (الفيّاش) قائد البلاد (تابروبانا) العظيمة والجيش الآخر لعدوه (پنتا پولين) ملك (الكارامانتس).

فسأل (سنشو) :

- «ولماذا يتقاتلان؟»

- «لأنَّ (الفياش) ملك شرير يريد أن يتزوج أبنة (پنتا پولين) ولكن الملك لن يوافق حتى يتخلى عن خططه الشريرة.»

فقال (سنشو) :

- «إنَّ پنتا پولين على صواب، واعتقد أنَّ علينا أنْ نساعده.

ولكن ما الـذي يمكن أنْ نفعله بحمـاري في أثنـاء المعركة، إذ ليس من المناسب لجندي أنْ يقاتل على ظهر حمار؟.»

- «لا تقلق بشأن حمـارك. عنـدمـا تنتهي هذه المعـركة سيكون لدينـا الكثيـر من الخيـول لتختار من بينها بحيث إنَّ (روثينانته) سيكون في خطر أنْ يُنسى.»

وفي هذه الأثنـاء، اقتـربت سحـابتَـا الغبـار إحـداهمـا من الأخـرى بحيث ابتـدأتـا بالاختـلاط، وتسلق (دون كيخـوتـه) وتابعه قمة تل صغير، وقال:

- «سنبقى هنـا حتى يبـدأ الجيشـان بالقتـال، ثمَّ عنـد احتـدام المعـركـة، سنـذهـب لنجـدة (پنتا پولين). أصغ إليَّ وسأخبرك بأسماء أشهر الفرسان في كلا الجانبين.»

واختـرع الفـارس عنـدئـذٍ اسمـاء لقـواد وفـرسان الجيشين اللذَّين تخَيلهمـا. وكـانا في الحقيقة قطيعين من الأغنام. وكان ثغـاء الأغنـام ونباح الكلاب وصياح الرعاة قد ملأ الجو. ولكن تلك الاصوات أثارت خيال الفارس أكثر فأكثر.

أصغى (سنشــو) فاغـر الفم، وفجأة هبت الـريـح وحـوّلت الغبـار الى جانبٍ واحـد. عنـدهـا أصبح بالامكان رؤية جيشي الاغنـام، ولقـد كان الـرعـاة يحـاولون فصلهما. فقال (سنشو) عندما توقف سيده عن الحديث للحظةٍ:

- «انظر يا سيدي، أنا لا أرى جنوداً أو فرساناً أو عمالقة. من أنَّ هنالك بعض السحر في الأمر مثلما كان في الحانة.»

أجاب (دون كيخوته) مستنكراً:

- «مـاذا؟ ألا تسمـع جلبـة المعـركة؟ اذهب وأخفِ نفسك أيها الجبـان المسكين، فإن ذراعي لوحـدهـا قادرة على أنْ تكسب المعركة للجانب الذي أناصره.» وعندما انتهى من قوله نزل من

التل، وهو يصرخ بصوتٍ يشبه الرعد.

«اتبعوني جميعاً أيها الفرسان الذين تقاتلون الى جانب الملك الشجاع (پنتا پولين)، وتفرجوا عليَّ وأنا أقاتل عدوه (الفياش) ملك (تابروبانا)!..»

واندفع (دون كيخوته) بين الاغنام، وبدأ يضرب برمحه في كل الاتجاهات صاح به الرعاة كي يترك الأغنام وشأنها، وعندما لاحظوا أنّه لم يأبه بتحذيراتهم، التقطوا حجارة وابتدأوا يرجمونه، اندفع (دون كيخوته) هنا وهناك وهو يصرخ:

- «أين أنت يا (الفياش)؟. تعال هنا وقاتل، كي أعاقبك على جرائمك».

عندها ضربته حَجارة كبيرة على جنبه، فأعتقد أنَّه قتل، وبسرعة وضع قنينة البلسم السحري على فمه، غير أنَّ حجارة أخرى ضربت في تلك اللحظة القنينة فتناثرت الى قطع صغيرة، كما حطّمت أثنين من أصابعه وكسَّرت معظم أسنانه.

تدحرج (دون كيخوته) من على حصانه وهوى على رأسه، في حين فرّ الرُعاة معتقدين أنّه قدمات، وجمعوا أغنامهم بسرعة، والتقطوا سبع نعاج أو ثمان كانت قد قُتلت ورحلوا بأسرع ما يستطيعون.

كان (سنشو)، طوال ذلك الوقت، واقفاً على التل يراقب تصرفات سيده المجنونة. وعندما ذهب الرعاة، هبط الى (دون كيخوته) الذي كان مجروحاً جرحاً بالغاً. وقال له بصوت حزين:

- «لقد حّذرتك مما سيحدث. لماذا تتصرف هكذا وتتخيل أنَّ الأغنام هي جيوش وأنَّ رُعاتها هم فرسان وملوك.»

فأجاب الفارس:

ـ «كل هذا من فعل ذلك الساحر الشرير الذي يكرهني كثيراً. إنه لا يحب أن يرى النجاح الذي سأحققه، فحول أعدائي الى أغنام. اتبعهم يا (سنشو) وسترى أنهم استعادوا أشكالهم الاصلية مرة أخرى فرساناً وجنود.
ولكن أبق ولا تذهب الآن، اقترب مني، لترى كم سنّ فقدت، إذ يبدو أنّه لم يبق لي سن في فمي.»

فعل (سنشو) ذلك، وسأل الفارس عن عدد الاسنان التي كانت له على ذلك الجانب قبل قتاله مع الرعاة، فأجابه (دون كيخوته) قائلاً: إنه لم يفقد من قبل سناً طوال حياته. فقال (سنشو):

ـ «لقد اختفت كل الأسنان من الفك العلوي، ولم يبق الا سنّان ونصف في الفك السفلي.»

انزعج الرجل المسكين كثيراً عند سماعه ذلك، فلقد كان يقول، إنّ السنّ السليم أفضل من جوهرة، ولكنّه واسى نفسه بالقول: إنّ كل الفرسان يتعرضون لمثل هذه الحوادث. وأخبر (سنشو) أنْ يتقدمه، وهكذا سارا الى الأمام ببطء وحزن، وكان (دون كيخوته) يضع يده على وجهه.

دون كيخوتة والسجناء

بعـد مغـامرته مع الاغنام، اضطُرَّ (دون كيخوته) وتابعه على أنْ يمضيا الليل في الغابة لانهما لم يجدا حانةً أو قلعة في تلك الارجـاء. وفي صبـاح اليوم التالي، حدث أنَّ حلاقاً كان يسـافر على حمـاره الى قريـة ليست بعيدة. وكان يرتدي قبعة جديدة، وعندما بدأت تمطر وضع صحن الحلاقة الذي كان يحمله معه على رأسـه لكي يقي قبعتـه المبلل. وكـان صحناً ممتازاً جديداً مصنـوعـاً من النحـاس الأصفـر، وعندما كانت الشمس تشرق للحظة عبر الغيوم، كان من الممكن أن يُرى بريقه من مسافة ميل.

وفي حين كان يسير سعيداً، في سلامٍ مع نفسه ومع العالم، رأى الحـلاق المسكين فجأة رجـلاً متـوحشاً يرتدي درعاً قديماً ويمتطي حصاناً هزيلاً يندفع تُجاهه بأقصى سرعة، وهو يصرخ بصوت مزعج:

ـ «دافع عن نفسك أيها الشرير وأعطني تلك الخوذة التي تعود اليَّ.»

لم يتوفر للرجل المسكين مايكفي من الوقت الّا لكي يقفز من مكانه، وبذلك أنقذ نفسه من ضربة الرمح، وأسقط الصحن مرعوباً وهرب من أجل أن يُنقذ حياته، أمّا مهاجمه الذي كان (دون كيخوته) بالطبْع، فلم يتبعه، بل وقف هناك ينظر إلى الحلاقة برضى عظيم.

وقال لـ (سنشو):

- «لقد تصرّف الرجل الشرير بمنتهى الحكمة. انزل وناولني تلك الخوذة الرائعة. إنها بالضبط النوع الذي كنت أبحث عنه.»

فرد (سنشو) وهو يناول سيده الخوذة:

- «إنه لصحن ممتاز.»

وضع (دون كيخوته) ذلك الشيء على رأسه، واداره من جانب لآخر، باحثاً عن القناع، وعندما لم يجد ذلك قال:

- «أيّ رأس كبير يمتلك ذلك الرجل الذي صُممت له هذه الخوذة المشهورة أساساً، إنّ من المؤسف أنَّ قناعها قد اختفى.»

وعند سماعه سيده يُسمي الصحن خوذة، لم يستطع (سنشو) منع نفسه من الضحك، ولكن نظرة غضبى من سيده جعلته يكون أكثر حذراً وشرح له بأنه كان يضحك بسبب التفكير في الرأس الكبير الذي ملأ القبعة من قبل، وختم قوله:

- «لقد رأيت العديد من الخوذ التي تشبه هذه معلقة في ابواب دكاكين الحلاقين.»

فأجابه (دون كيخوته) وقد خلع الصحن من رأسه وابتدأ يتفحصه بتمعن:

- «يبدو لي أنَّ هذه الخوذة السرية كانت تعود لتاجر أحمق،

عنـدمـا رأى إنهـا مصنـوعـة من الـذهب الخـالص قطعهـا الى نصفين، باع نصفـاً وغيـرّ النصف الثـاني الى شكلهـا الحالي، الـذي مثلمـا تقول، يشبه الى حد غريب صحن حلاقة. ولكني سأصنـع منـه خوذة، والى أن يحين ذلـك الوقت، فإني سألبسه كما هو.»

فقال (سنشو):

- «مـا أريـد معـرفتـه هو: هل يمكن أن آخذ ذلك الحمار الذي يبدو افضل من حماري؟»

وردّ سيده:

- «تعني ذلـك الحصـان الـرائـع؟. لا. لن أسمـح لك بذلك، فضـد قوانين الفـروسية أن تسلب عدواً مهزوماً حصانه، ولكن يمكنك أخذ السرج، إن كنت في حاجة ملحة له.»

- «أنا كذلك.» ردّ (سنشو) وأخذ في الحال سرج الحلاق الذي كان ممتـازاً وشـده على حمـاره. ثم غادر الرجلان مرة أخرى، تاركين (روثينانته) يحدد اتجاه مسيرهما كما يفعل الفرسان عادةً.

كان الفـارس على صهـوة جواده يفكـر في سيـدته (دلثينا)، عنـدما التفت فرأى أثني عشر رجلاً تقريباً قادمين تجاهه. كانوا مربـوطين من رقـابهم بعضهم الى بعض بسلسلة حديـديـة والأغـلال في أيـديهم، وبصحبتهم رجلان على خيولهم واثنان على اقدامهم.

فقال (سنشو):

- «إنهم سجنـاء، اقتيـدوا بالقوة ليعملوا في السفن حيث يُعاقب المجرمون.»

اجاب (دون كيخوته):

- «هل قلت بالقوة؟. إذن فإنَّ هذه حالة تتطلب أنْ أؤدي واجبي فيها، إذ يجب أن أساعد كل أولئك الذين يتعرضون الى عنفٍ(لاقانوني).»

فرّد (سنشو):

- «ليس ثمة عنفٌ لاقانوني في هذه الحالة، إنهم يتلقون عقوبتهم فقط.»

ولكن (دون كيخوته) لم يهتم بكلامه، بل اقترب من أحد الضباط، وبكلمات مؤدبة جداً، التمس التحدث الى أولئك التعساء حول سبب حالتهم المزْرية.

وافق الضابط، وتحدث الفارس الى الرجل الاول الواقف في الصف وسأله عن الخطأ الذي ارتكبه، فرّد الرجل ضاحكاً:

- «كنت عاشقاً»

- «عاشقاً؟» أجاب (دون كيخوته) معتقداً أنَّ هنالك قصة تتعلق بالفرسان والسيدات.

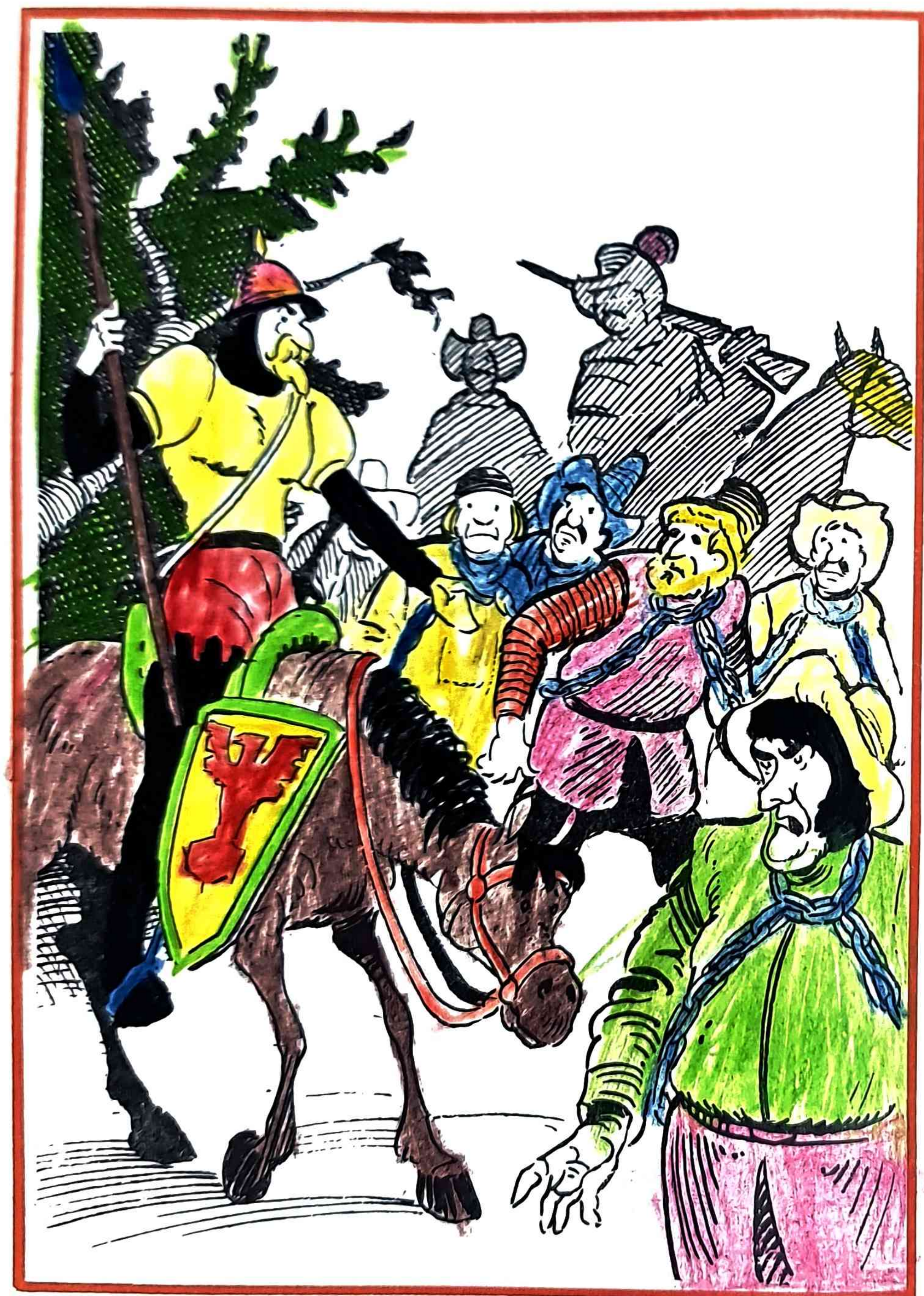
فأجاب السجين:

- «نعم، كنت عاشقاً لبعض الملابس الجميلة التي هربت بها، ولكن الضباط استرجعوا الملابس مني. وكان جزاء حبي الوفي مائة جلدة على ظهري وثلاث سنواتٍ في السجن.»

أمّا السجين الآخر فكان رجلاً عجوزاً له لحية طويلة بيضاء. ولقد ارتكب كل أنواع الشرور، وبعده جاء رجل في الثلاثين من عمره، مقيد أكثر من البقية، سأله (دون كيخوته) عمن يكون، ولماذا يعامل بهذا الاسلوب؟

أجابه الضابط:

- «هذا (بسمونته) الشهير، أكثر الناس شراً في اسبانيا قاطبةً، إنه ذكي إلى درجة أننا خائفون، على الرغم من كل هذه



السلاسل، من أنه سيهرب. »
وقال السجين:
- «نعم، أنا (بسمونته) الذي سيصبح معروفاً في كل بقعة يتحدث الناس فيها بالاسبانية. »
من النادر أن تجد أسوأ من هذه المجموعة من اللصوص وقطاع الطرق والقتلة، ولكن (دون كيخوته) لم يكن يعتقد ذلك. وعندما انتهى من طرح الاسئلة، تحدث اليهم على النحو الآتي:
- «إخواني الأعزاء، لقد دخلتم السجن عنوةً، وانّ واجبي يدعوني إلى أن أساعد كل أولئك الذين يعاملون بقسوة. لذلك يجب أن اطلب من هذين الضابطين اللذين يقتادانكم الى محل عقوبتكم، أن يفكّوا سلاسلكم ويطلقونكم أحراراً. فإن لم يفعلوا ذلك نزولاً عند رغبتي، فإنهم سيفعلونه خوفاً من هذا الرمح وهذا السيف. »
فقال الضابط:
- «يالها من نكتة رائعة!. إذن، فإن علينا أنْ نطلق سراح السجناء، أليس كذلك؟. أيّ حقٍ يسمح لك بإصدار مثل هذه الاوامر؟. اذهب في طريقك يا سيدي، ودعنا نذهب في طريقنا. ضع صحن النحاس على رأسك ولا تتصرف مثل أحمق!»
فصرخ (دون كيخوته):
- «أحمق؟. أنت تدعوني أحمق؟!»
ومن دون أنْ يعطي الضابط وقتاً ليدافع عن نفسه، اندفع تُجاهه برمحه وأسقطه على الارض وقد جرحه جرحاً بليغاً.
عندما رأى الضباط الأخرون أنّ آمرهم قد هُوجم، استلوا

سيوفهم في الحال. وكان من الممكن أن يدفع الفارس حياته ثمناً لتصرفه الطائش لو لم يهبّ السجناء لنجدته برميهم بالاحجار. كما أنَّ (سنشو) أخذ المفاتيح من الضابط الجريح وفتح سلاسل (بسمونته)، فالتقط قاطع الطريق الرهيب السيف الذي سقط من الضابط الجريح، وهاجم الضباط الثلاثة بوحشية حتى أنّهم سرعان ما هربوا نافذين بجلودهم.

تحرر السجناء من قيودهم، وكان أول شيء فعلوه أنهم سلبوا كل شيء من الرجل الجريح. ثُمَّ تجمعوا حول (دون كيخوته) ليسمعوا ما يقوله:

-«يا أصدقائي، لقد تمكنت من مساعدتكم. وأنا متأكد أنكم مدينون لي بحياتكم الآن ويمكنكم البرهنة على ذلك بتلبية ما اطلبه منكم. أريد أن تأخذوا هذه السلسلة الطويلة التي حُررت رقابكم منها، وتذهبوا بها إلى مدينة (توبوسو)، وهناك يجب أن تزوروا السيدة (دلثينا) وتخبروها بقصة هذه المغامرة العظيمة التي جعلتكم رجالاً أحراراً.

وعندما تنتهون من فعل هذا، فإنّ بامكانكم الذهاب أنّى شئتم.»

فقال (بسمونته):

- «إنَّ ما تطلبه لمستحيل يا سيدي. فكيف نستطيع، وقد هربنا من وجه العدالة، أن نمشي على الطريق معاً حاملين هذه السلسلة الثقيلة؟.

إنَّ من الافضل أن نتفرق ونُخفي انفسنا، لأنَّ البلاد كلها تبحث عنا الآن.»

جعلت هذه الكلمات (دون كيخوته) غاضباً ومتوحشاً وصرخ بهم:

- «يجب أن تفعلوا ما آمركم به. اذهبوا الى (توبوسو) حاملين هذه السلسلة على ظهوركم.»

أصدر (بسمونته) إشارة الى مرافقيه، فانهالوا على الفارس بسيل من الاحجار، بحيث سرعان ما أسقط على الارض. وعندما سقط هناك، أخذ (بسمونته) الصحن من على رأسه وضرب به على كتفيه، ثمَّ رمى الصحن بعنف بحيث تحطم وتناثرت أجزاؤه على الارض.

وبعد أن سلبوا الفارس و (سنشو) ملابسهما، تفرقوا في اتجاهات مختلفة، إذ كانوا أكثر اهتماماً بالهروب من الشرطة من زيارة السيدة (دلثيناديل توبوسو).

وهكذا بقي الفارس متمدداً معاقباً مرة أخرى بسبب أفكاره الحمقاء.

وكان الحصان والحمار يتساءلان: بصمت: متى يتوقف سيل الحجارة، وخلفهما كان (سنشو) يفكر مرعوباً في الانتقام الذي سيتعرضان له عندما تعرف قصة المغامرة.

في جبال السيرامورينا

خيم الحزن على (دون كيخوته) بسبب المعاملة الجاحدة التي عُومل بها من قبل السجناء الى درجة أنه سمح لسنشو أن يتقدمه في الطريق. ولقد اعتقد الأخير بأن من الافضل لهما أن يختفيا في جبال (السيرا مورينا) وهي منطقة موحشة من البلاد تقع بين (اللامنتشا) و (الاندلس). وبعد أن سارا طوال النهار، توقفا لقضاء الليل في شعب صخري ضيق.

وفي الصباح الباكر استيقظ (دون كيخوته) على صرخات (سنشو) الحادة، والذي كان في مصيبة كبيرة بسبب اختفاء حماره (دابل).

طمأن (دون كيخوته) تابعه بوعده بأنه سيمنحه ثلاثة من الجحوش الخمسة التي يمتلكها في البيت، ثم امتطى (روثينانته) وابتدأ مسيرته من جديد بحثاً عن المغامرات في حين (سنشو) يهرول خلفه على القدمين.

في عصر ذلك اليوم، وردت فكرة جديدة إلى ذهن (دون كيخوته)، والتي كما أخبر (سنشو)، ستجعل اسمه مشهوراً في

كل أنحاء العالم. فالفارس العظيم (اماديس) التجأ الى جزيرة نائية بسبب المعاملة القاسية التي تعرّض لها من قبل سيدته (اوريانا). لذلك قرر (دون كيخوته) أن يقضي بعض الوقت في (السيرا مورينا)، لكي يظهر أساه بسبب اللامبالاة والقسوة التي أظهرتها سيدته تجاهه.

لم تُعجب الفكرة الجديدة (سنشو) على الاطلاق، وقال مخاطباً سيده:

- «ولكن لماذا تزعج نفسك يا صاحب السيادة مقابل لا شيء؟ إنَّ (اماديس) وكل الفرسان الحمقى الآخرين الذين تنظر لهم باحترام كانوا يعاملون معاملة قاسية من قبل سيداتهم حقاً، ولكن أي دليل لديك على أن (دلثينا) قد أساءت معاملتك؟»

فأجابه (دون كيخوته):

- «ليس لدي أيّ دليل على الاطلاق. وهذا هو ما يجعل فكرتي رائعة. إن أيّ رجل يمكن أن يفقد عقله من الحزن لسبب معقول - ليس هناك شيء غريب في هذا الامر. ولكن أن تفقد عقلك من دون أيّ سبب يدعوك للحزن، فإن هذا هو الغريب، وهو ما يجب أن يحدث لفارس نبيل مثلي. سأبقى هنا حزيناً بائساً حتى تعود اليَّ بجواب على رسالة سأكتبها الى وردة (توبوسو) الحلوة، فإن أجابت، كما آمل فإنّ كل شيء سيكون على ما يرام. وإن لم تجب، عندها سأفقد عقلي حقاً، وبهذه الطريقة لن أعاني بعد ذلك المزيد من الألم والحزن، وفي كلتا الحالتين سيكون كل شيء على ما يرام.»

في حين كانا يتحدثان حول هذه الخطة، وصلا الى غابةٍ فيها ساقية صغيرة، مظللة، بالعديد من الأزهار مختلفة الالوان، وتضجّ بموسيقى الماء الجاري، في حين ترتجف

الاوراق في الهواء. ولقد بدا لدون كيخوته أنّ ذلك هو المكان المناسب الذي يستطيع البقاء فيه، وتمثيل دور العاشق الحزين.

وهكـذا ترجّـل من حصـانه، وخلع سرجه وترك (روثينانته) يرعى طليقاً.

سأل (سنشـو) سيـده عمـا إذا كان سيـرسـل الـرسالة حقاً.

فأجابه الفارس:

- «سأفعل بالتأكيد، لماذا تسأل؟»

فرد (سنشو):

- «إذا كان عليَّ أن أنقـل هذه الـرسـالة فمن الافضل أن تعيرني (روثينـانتـه) كي يوصلني الى (تـوبوسو)، لاني إذا ذهبت مشياً على الاقدام، فإن سيادتكم سيكون قد جُن تماماً قبل أن أتمكن من العودة.»

وافق (دون كيخـوتـه)، وابتـدأ في الحـال يكتب الـرسالة، فضـلاً عن طلب كتبـه الى خادمه يأمره فيه بأن يعطي الجحوش الى (سنشو) على قطعة من الورق من دفتره الجيبي.

ثم قال (دون كيخوته) عندما أنهى الرسالة:

- «يجب أن تستنسـخ هذه الـرسالة على ورق فاخر وبخط جيد في أول قريـة تصـادفها في طريقك الى (توبوسو). إنَّ (دلثينيا) لن تعرف أنّها لم تكتب من قبلي، فهي لا تستطيع القراءة والكتابة.»

ثم أضاف:

«على الـرغم من أني احبهـا وأعـرفها منذ اثنتي عشرة سنة، غير أني أعتقد بأنها لا تميزني بالشكل، فهي تعيش في عزلة مع والدها (لورنثو كورتشويلو) ووالدتها (الدونثا نوجالس)»:

فصرخ (سنشو) دهشاً لانه لم يسمع باسم (دلثينيا) الحقيقي من قبل :

- «ماذا؟ هل هذه هي السيدة التي يحبها سيادتكم ، ابنة المزارع (الدونثا لورينثو) . »

فأجاب (دون كيخوته) :

- «هي ولا أحد سواها ، وهي تستحق حبي أكثر من أية سيدة أخرى في العالم . »

فقال (سنشو) :

- «أنا أعرفها جيداً ، وهي فتاة طيبة قوية ، وأي صوت جهوري تمتلك ! . أتذكر أنها في احدى المرات ، ذهبت لتنادي على أحد رجال أبيها من الحقل . وعلى الرغم من أنهم كانوا يبعدون بأكثر من ميل . إلاّ أنهم سمعوا صوتها كما لو أنها كانت على بعد خطوات منهم . إنها تضحك وتنكّت مع الجميع . وسأكون مسروراً لرؤيتها مرة ثانيةً . إن هذه لمفاجأة عظيمة بالنسبة لي . لقد تصورت طوال الوقت أنَّ سيادتكم واقع في غرام سيدة عظيمة . وكان من الطبيعي أنْ ترسل لها مثل هذه الهدايا الثمينة والفرسان الذين تهزمهم في المعارك .

ولكن ما فائدة مثل هذه الاشياء لابنة مزارع؟ وبماذا سيفكر الفرسان ، عندما تكون أمامهم ، ويجدونها مشغولة بأعمال الحقل القذرة؟ حقاً سيبدون حمقى عندما تضحك منهم وتطردهم ! . »

وأجابه (دون كيخوته) :

- «اوه يا (سنشو) ، يالك من متحدث أحمق ! ماهذه الكلمات الحمقاء عن (الدونثا لورينثو)؟ إنك لاتعرفها . وأنا أحبها ، وهي أجمل امرأة في العالم وأنبل من أية أميرة . »



طلب (سنشو) العفو من سيده عما بدر منه، وتوسل إليه أن يقرأ الرسالة له، فكانت على النحو الآتي:

سيدتي النبيلة الرائعة

بقلب ممتلىء بالحزن بسبب غيابك الطويل، أتمنى لك الصحة يا عزيزتي (دليثنيا ديل توبوسو)، على الرغم من أنّ صحتي في حالة ميؤوس منها. لقد رفضني جمالك، فأنت أفضل من أن تكوني لي، وأنّ علمي بأنك لاتحترمينني ملأني بالغم. أعرف أنّ وقت معاناتي لابدّ من أن يكون قصيراً. نعم، فالموت عدوي، وسيضع قريباً حداً لنهاية لعذاباتي، الا إذا كنت راغبةً في إظهار بعض العطف تجاهي. إنّ الخبر الصحيح ستعرفينه من خادمي الوفي (سنشو) الذي سيخبرك بالحال الذي تركني عليه.

المخلص لك حتى الموت

الفارس ذو الطلعة الحزينة

فصرخ (سنشو) عندما سمع هذه الرسالة:

- «رائع! هذه أروع قطعة مكتوبة سمعتها على الاطلاق. كما أنّ اسم (الفارس ذو الطلعة الحزينة) يبدو مناسباً جداً. فإذا كتبت طلب الجحوش، فإني سأبدأ رحلتي على وجه السرعة.

فقال له السيد:

- «انتظر حتى ترى تصرفاتي لنصف ساعة لكي تصف على نحو أفضل حالتي لدنثيا.»

فردّ (سنشو) قائلاً:

- «بإمكانك أنْ تثق بأني سأفعل ذلك. سأقص عليها قصة تجعل شعر رأسها يقف في نهايتها. ولكن أخبرني: ماذا سيأكل سيادتكم في أثناء غيابي؟!»

أخبـره (دون كيخـوتـه) بأنّ الأثمـار التي تنمـو في البراري ستكـون كافيـة لسدّ رمقـه . وهكذا وضع (سنشو) السرج على ظهر (روثينانته) وودّع سيده وابتدأ رحلته .



القس والحلاق

وصل (سنشو) في اليوم نفسه الذي ترك فيه (دون كيخوته) الى الحانة التي تعرَّض فيها للضرب من قبل. ووقف في الخارج حائراً لايدري ما يفعل. اذ كانت هناك رائحة طعام مغرية، ولكن ذهنه ما زال ممتلئاً بالمخاوف من هذه (القلعة السحرية).

وفي حين كان يتجول، سمع أحدهم يهتف باسم:

- «ماالذي تفعله هنا يا (سنشو بنثا)، وأين تركت سيدك؟..»

كان المتحدث حلاق القرية وهو مسافرٌ في رحلة عملٍ مع صديقه القس.

في البداية، رفض (سنشو) إخباره عن مكان (دون كيخوته)، ولكنه حذره من أنه إذا رفض إخباره، فإنَّ الناس سيقولون إنه قد قتل سيده، فأرعبه ذلك وأخبره في الحال قصة الطريقة التي أراد الفارس أن يعاقب بها نفسه من أجل (دلثيا).

ولقد طلب القس، الذي لحق بالحلاق بعد أنْ خرج من الحانة، أن يُريه الرسالة. بحث (سنشو) في كل جيوبه ولكن

من دون جدوى، وأصبح تعيساً ومرعوباً جداً عندما اكتشف أنه قد نسي أنْ يجلبها معه، فلقد تركها مع طلب تسليم الجحوش عند (دون كيخوته).

فقال القس:

- «لاتهتم بشأن الرسالة. إنّ بامكانك الحصول بسهولةٍ على واحدةٍ جديدة. إنّ ما يجب علينا أن نفعله الآن هو أن نُوقف تصرفات سيدك الحمقاء. وابتدأ الحلاق والقس يُعدان الخطط لاعادة (دون كيخوته) الى قريته، حيث أمّلا ان يتعافى مرةً أخرى ويتخلص من هذه الأفكار الحمقاء التي تُعشش في رأسه.

ابتدأوا رحلتهم مبكرين في صباح اليوم التالي، وكان (سنشو) يدلّهم على الطريق. وبْعد رحلةٍ طويلة شاقةٍ وصلوا الى وادٍ مُوحش قرب المكان الذي يعتكف فيه (دون كيخوته). ولقد توقفا هناك وأرسلا (سنشو) ليعثر على سيده، وأخبراه بأن يقول لسيده: إنّ (دلثينا) قد أمرت الفارس بالعودة إليها حالاً، وبهذه الطريقة أمّلا أنْ يعيدا (دون كيخوته) الى بيته بسرعة ومن دون مشاكل أخر.

بعد بضع ساعات سمعا صوت (سنشو بنثا) الذي عاد لتوه. ولانه لم يجد الحلاق والقس حيث تركهما. لذلك كان يركض على غير هدى ويلتفت من حوله ويصيح باسميهما بأعلى مايستطيع. فأجابا نداءه ووجدهما في الحال وقصّ عليهما أخبار سيده. وقال لهما: إنه وجد الفارس يكاد يموت من الجوع وهو مايزال يصرخ باسم سيدته (دلثينا). ولقد رفض، كما قال (سنشو)، العودة الى (توبوسو) حتى يكسب معركة كبيرة تجعله مشهوراً الى درجةٍ تُشرفه بالظهور امامها.



قاد (سنشو) بعد ذلك القس والحلاق الى الوادي الموحش، حيث وجدا الفارس جالساً مُستغرقاً قرب صخرة وقد خلع درعه.

دُهش (دون كيخوته) وسُر لأنْ يرى القس وسأله:

- «أيّ تجارة هذه التي جاءت بك الى هذا المكان النائي؟»

قصّ عليه القس كيف أنّه ذهب الى (اشبيلية) حيث استلم بعض النقود التي أرسلها له خاله الذي يعيش في بلاد جزر الهند الغربية. وفي أثناء عودته هاجمته مجموعة من السجناء الهاربين وسرقوا نقوده، ثم أضاف القس قائلاً:

- «ويقول الناس إنَّ اولئك الاشزار الذين سلبوني نقودي، كانوا سجناء حرّرهم رجل شجاع متوحش تمكن من إلحاق الهزيمة بعدد كبير من رجال الشرطة الذين كانوا بصحبتهم. ليُسامحه الرب، أيّاً كان!، بسبب هذا التصرُّف اللاانساني المخالف للقانون!.»

وكان القس قد سمع من (سنشو) المغامرة مع السجناء، لذلك فلقد ذكر كلّ هذا ليظهر للفارس حماقة تصرفاته.

لم ينبس (دون كيخوته) بكلمة واحدةٍ، بل بدا أحمق بعض الشيء. كان خجلاً من أنْ يخبر القس بأنّه هو الذي منح اولئك الاشرار حريتهم. ولكن (سنشو) لم يتمكن من سدّ فمه لفترة طويلة. وابتدأ يتحدث عن المغامرة مما أغضب سيده كثيراً، وكان (سنشو) في خطر التورط بمشاكل أكثر عندما رأوا رجلاً يتقدم نحوهم راكباً حماراً، وحالما رأى (سنشو) الرجل، صرخ به بصوتٍ متوحش:

- «ترجّل عن ذلك الحمار يا(بسمونه)، ترجّل أيها اللص!.»

قفز الرجل وهرب مسرعاً. وكان هو (بسمونة) حقاً. زعيم

السجنـــاء الهـاربين ، إذ التجأ بعـد هروبـه الى جبـال (السيـرا مورينا) حيث سرق الحمار في حين كان (سنشو) وسيده نائمين .

كانت متعة (سنشو) عظيمة . فوضع ذراعه حول رقبة الحمار وقال :

ـ «ماذا حدث لك ياصديقي العزيز؟»

ولكنّ الحمار وقف يحملق فيه من دون أنْ يردّ عليه بكلمة واحدةٍ .



مغامرات اخرى في الحانة

في اليوم التالي وصل الجميع الى الحانة التي صنع فيها (دون كيخوته) بلسمه السحري والتي تعرضّ فيها (سنشو) للمعاملة السيئة، ولقد طلب (دون كيخوته) أن يُعد سريره في الحال، وحالما أصبح جاهزاً، ذهب ليرتاح لأنه كان تعباً بسبب معاناته، في حين جلس الباقون لتناول العشاء مع صاحب الحانة وزوجته وابنته. وفي أثناء العشاء تحدثوا عن جنون (دون كيخوته)، وأخبرهم القس بأنَّ الرجل المسكين قد فقد عقله بسبب قراءته لكتب الفروسية، ولقد كان صاحب الحانة وابنته مغرمين بهذا النوع من الكتب، ولقد كان القس يحاول أنْ يثبت لهم حماقة مثل هذه القصص عندما اندفع (سنشو) الى الغرفة صارخاً:

- «النجدة!.، انجدوا سيدي!، لقد هُوجم من قبل مجموعةٍ من العمالقة. لقد رأيته الآن وقد حزَّ رأس أحدهم، وغُمرت الارض بدم العملاق، حيث سقط رأسه مثل زقّ خمرٍ كبير.»

فصرخ صاحب الحانة:

- «المجنون!، لقد قطع زقّ شرابٍ أحمر.»

واندفع الجميع الى الغرفة التي تركوا فيها الفارس نائماً، وعندما وصلوا إليها أدار وجهه نحوهم، وعندها لاحظوا أنَّ عينيه كانتا مغلقتين. كان نائماً، وهو يحلم بأنّه كان يدافع عن نفسه ضد أعداء أميرةٍ نبيلة وجميلة اسمها (ميكو ميكونا).

عندما رأى صاحب الحانة العديد من زقاق خمره وقد مُزقّت إرباً، وأنَّ خمره قد سُفح على الارض، ابتدأ يضرب الفارس، ولو لم يُبعده الآخرون، لما تسنّى لدون كيخوته أنْ يخوض معارك أخرى. وعلى الرغم من كل ذلك فإنّه لم يستيقظ حتى سكب عليه الحلاق ماءً بارداً وبلّله من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. عندها فتح الرجل عينيه ونظر بتوحشٍ حوله، كما لو أنه سقط لتوه من القمر.

كان (سنشو) يبحث في كل زاوية من زوايا الغرفة عن رأس العملاق من دون أن يجده فقال:

- «الآن تيقنت أنَّ هذا البيت مسحور. فلقد رأيت بأمّ عيني سيدي وهو يقطع رأس العملاق. وكان الدم ينساب مثل النهر، فلابِّد من أنَّ ساحراً قد أخذه بعيداً من هنا.»

فصرخ به صاحب الحانة:

- «أيّ حديثٍ أحمق هذا عن الدم والرؤوس المقطوعة! هذه ليست رؤوس بل زقاق خمر، وأنَّ الدم هو خمري الأحمر الرائع. إنَّ هذا الرجل مجنون مثل سيده. وسأجبرهما على أنْ يدفعا لي تعويضاً عن كل شيء حتى ثمن تصليح زِقاق الخمر.»

في حين كان صاحب الحانة يتحدث على هذا النحو، أمسك القس بيدي (دون كيخوته) الذي كان نصف نائم،

فاعتقد بأنّ القس هو الأميرة التي حارب من أجلها، فركع قائلاً :

- «والآن ياصاحبة الجلالة فإنَّ بإمكانك الاستمتاع بمملكتك بسلام. فليس ثَمة ما تخشينه من العملاق الشرير الذي تغلبت عليه. لقد وفيت بوعدي.»

ضحك الجميع من حديث الرجل المجنون، وفي النهاية أعيد (دون كيخوته) الى السرير وسرعان ما استغرق في النوم مرة أخرى.

كان (سنشو) هو الوحيد الذي تغلب عليه الحزن، لأنّه لم يَعد يأمل بالغنى والمملكة العظيمة. وفي النهاية ذهب الى غرفة نوم سيده وابتدأ بالشكوى :

- «إنَّ بإمكانك أن تنام قدر ماتشاء ياسيدي. فليس هناك عملاق يجب قتله. وأنَّ الأميرة التي أنقذتها من الاعداء الاشرار لم تك إلاّ مجرد حلمٍ عابر.»

فردَّ عليه (دون كيخوته) :

- «بالطبع ليس هناك عِملاق فلقد قتلته قبل قليل. لقد فصلت رأسه بضربةٍ من سيفي وسال الدم مثل الماء.»

فقال له (سنشو) :

- «تعني مثل الشراب الأحمر. إنَّ العملاق الذي قتلته هو زقّ خمر كبير. مزقته إرباً إرباً، وإنَّ الدم الذي سال هو الشراب؛ كمية كبيرة منه أيضاً.»

فقال له سيده :

- «عمَّ تتحدث أيها الأحمق، هل فقدت صوابك؟»

فأجابه (سنشو) :

- «ستفهم كل شيء قريباً جداً عندما يطلبون تعويضاً منك.»

فقال (دون كيخوته):
- «يبدو لي أنْ ليس هناك نهاية للأحداث الغريبة في هذه القلعة المسحورة. أعطني ملابسي يا(سنشو) لأنزل واستعلم حول الامر.»

في حين كان الفارس و(سنشو) يتحدثان على هذا النحو في الطابق الاعلى، كان القس وصاحب الحانة يُعدان الخطط لكي يُعيدا (دون كيخوته) الى قريته. لقد قررا أنْ تتظاهر ابنة صاحب الحانة بأنَّها الأميرة الجميلة التعيسة (ميكوميكونا). وهكذا، فعندما يدخل (دون كيخوته) الى الغرفة، تتحدث اليه ابنة صاحب الحانة بنبرة حادة قائلة: «شكراً لك ياسيدي الفارس على قتالك الشجاع، وإنّي لمُعجبة جداً بشجاعتك. غداً سنبدأ رحلتنا وآمل أني أستعيد مملكتي قريباً.»

صدَّق (دون كيخوته) كل كلمة قالتها ابنة صاحب الحانة وقال وهو يستدير بغضبٍ الى تابعه:
- «والان يا سنشو، لماذا جئتني بقصصك الحمقاء؟ بودي أن أقطعك إرباً، إرباً لتكون عبرةً لكل التابعين من أمثالك في المستقبل.»

توسل صاحب الحانة بالفارس أنْ يُهديء نفسه، وأصغى (دون كيخوته)، الذي اعتقد بأنَّ صاحب الحانة هو من كبار المسؤولين المُقربين للأميرة، باحترام اليه ووافق على العفو عن (سنشو).

أوى الجميع للراحة، باستثناء فارس «لامنشا» فلقد أخذ رمحه وسيفه وترسه، وخرج لكي يقف للحراسة. إذا إنَّ عملاقاً أو فارساً شريراً، كما قال، يمكن أنْ يهاجم القلعة ليحاول الفوز بكنز الجمال الذي ينام هناك في تلك الليلة.



في صباح اليوم التالي، وقبل فترة قصيرةٍ من شروق الشمس. سمع (دون كيخوته) أصوات خيولٍ، ثم وصل أربعة رجال الى باب الحانة ونادوا على صاحبها لكي يفتح الابواب. صرخ دون كيخوته الذي كان جالساً على (روثينانته):

- «أيها الفرسان او التابعون ليس من المناسب أنْ تُصدروا مثل هذه الضوضاء عند بوابات القلعة قبل أنْ ينقشع الليل. انتظروا حتى طلوع الشمس، وعندها سيقرر سيد القلعة السماح لكم بالدخول أو عَدَمه.»

وردَّ عليه أحد الرجال:

- «ما هذه الحماقات حول الفرسان والقرع. إذا كنت صاحب الحانة فأخبرهم بأن يفتحوا الباب، فنحن ضباط شرطةٍ وفي عجلةٍ من أمرنا ونريد علفاً لخيولنا.»

فسأله (دون كيخوته) غاضباً:

- «هل أبدو مثل صاحب حانة؟»

فأجابه الرجل:

- «الجو مظلم ولا استطيع أنْ أتبين ملامحك. ولكني أعرف أنك تتحدث مثل أحمق حين تُسمّي هذه الحانة قلعة.» ثم استداروا مرة أخرى الى باب الحانة وابتدأوا يطرقونه طرقاً عنيفاً. وفي حين كان (دون كيخوته) يستعد لقتال هؤلاء الرجال غير المؤدبين، استيقظ صاحب الحانة بسبب الضوضاء وفتح لهم الابواب.

استدعى (دون كيخوته) سنشو لكي يأتي ويساعده. ولكنَّ التابع كان مشغولاً جداً فلم يُلبِ هذا الامر. فلقد كان يتشاجر

بعنفٍ مع مسافرٍ اخر. كان قد وصل الحانة لتو، كان ذلك الرجل هو الحلاق الذي سلب منه (دون كيخوته) خوذته الرائعة، وعندما التقى بسنشو، اكتشف الرجل في الحال أنه هو اللص الذي سرق منه سرجه الجديد. لذلك اندفع نحو (سنشو) صارخاً:

- «أعدْ لي صحني وسرجي اللذين سرقتهما مني.»

وضرب (سنشو) الحلاق ضربة كادت تُسقط أسنانه، فصرخ الحلاق:

- «النجدة، لقد سُرقت وقتلت!.»

وفي هذه الاثناء تجمع الناس لمعرفة سبب الضوضاء، فتوسل اليهم الحلاق أنْ يساعدوه. وقصّ على كل واحد منهم قصة الصحن والسرج اللذين سُرقا منه. وعندما سمع (دون كيخوته) كلمة صحن أحسَّ بعدم الارتياح. وفصل الرجلين المتخاصمين قائلاً:

- «هذه مسألة مُهمة. اذهب يا(سنشو) وأجلب الخوذة التي يُسمّيها هذا المجنون صحناً.»

جُلبت الخوذة وأراها (دون كيخوته) للجميع لكي يتفحصوها سائلاً إياهم: أهي صحنٌ أم خوذة؟

قرّر (نيقولا)، حلاق القرية، أنَّ هذه فرصة طيبة للاستمتاع، فنظر الى الصحن بوجه جادّ ثم التفت الى الحلاق الآخر قائلاً:

- «لقد ارتكبت غلطةً كبيرة يا صديقي. إني أعمل حلاقاً منذ عشرين عاماً كما خدمت جُندياً أيضاً، وأعرف كل شيء وعن الخُوذ والدروع. أنا متأكد أنَّ هذا الشيء الذي تُسمّيه صحناً هو خوذة ولا شيء آخر.»

ثم دار (نيقولا)، ليسأل الجميع واحداً بعد آخر، وأقسم الجميع: إنَّ هذا الشيء هو خوذة بالتأكيد. وعندما وجد الحلاق المسكين أنَّ الجميع ضده، ابتعد عنهم معتقداً بأنَّ العالم قد فقد صوابه.

حالما حُسمت هذه المسألة المُهمة، خرج أحد ضباط الشرطة من الحانة، حيث كان يتناول الافطار مع رفاقه، وفي طريقه الى الاصطبل اجتاز (دون كيخوته)، ثم مالبث أن توقف فجأةً، وابتدأ ينظر الى وجه الفارس ودرعه، ثمَّ ابتدأ ينظر في ورقة أخرجها من جيبه، ومرة أخرى نظر بتمعنٍ الى الفارس. وبعد ذلك وضع يده على كتف (دون كيخوته) وصرخ بصوت عالٍ:

- «بأسم الملك، أعتقل هذا الرجل لمخالفته القانون.»

أخذ القس الذي كان يقف بقربهما الورقة التي كانت تحتوي على الأوصاف الدقيقة لفارس «لامنشا» وعلى وصف للطريقة التي هاجم بها ضباط الملك وأطلق سراح السجناء. وعندما وجد (دون كيخوته) نفسه وقد عُومل بهذه الطريقة، هاجم ضابط الشرطة بعنف حتى فصلهما القس وصاحب الحانة.

وقال الفارس، الذي التحق به زملاؤه الثلاثة، إنَّ الفارس يجب أن يُسجن، في حين ضحك (دون كيخوته) عند سماعه ذلك، وقال له:

- «ما الذي تعرفه عن الفرسان والفروسية؟. إنَّ اولئك الذين يُطيعون قوانين الفروسية لا يحتاجون لاطاعة القوانين الأخرى. كيف تتجرأ على أن تضع يديك القذرتين على كتف فارسٍ شريف؟.»

ثم غضب كثيراً وتحدث وتصرف بطريقة متوحشة بحيث تأكد الضابط من أنه رجل مجنون. وعندما أخبره القس بأنَّ الفارس سيعتنى به وسيعاد الى أهله اقتنع بأنْ يغادر من دون السجين.

في ذلك المساء، آوى (دون كيخوته) الى فراشه مبكّراً. وتبع (سنشو) سيده في الحال. وابتدأ القس والحلاق يُعدان الخطط لكي يُعيدا الفارس المجنون الى قريته. ولقد حدث أن مرَّ رجل عنده عربة ذات حصانين، ولقد وعداه بأن يدفعا له أجراً طيباً إنْ هو ساعدهما، فوافق الرجل. ثم صنعوا قفصاً خشبياً قوياً من النوع الذي يستعمل للحيوانات المتوحشة. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً، ذهب الحلاق والقس وصاحب الحانة الى غرفة نوم دون كيخوته وربطوه بالحبال ثم حملوه الى القفص الموضوع على العربة ودفعوه الى داخله وأقفلوا الباب.

وكان جميع الرجال يرتدون أقنعة ويتنكرون بملابس غريبة.

تمدّد الفارس هناك وهو ينظر برعب الى المخلوقات الغريبة المحيطة به، والذين تصورهم سحرة أشراراً من القلعة. ولكي يؤكد هذا الظن تحدث الحلاق الى (دون كيخوته) بصوتٍ واطيء عبْر الظلام:

ـ لا تخف يا فارس الطلعة الحزينة عندما تجد نفسك سجيناً في هذا القفص.

فبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تنال النجاح الهائل الذي تأمله، وأنت، أيها التابع الامين النبيل، لا تنزعج عندما ترى سيدك، ذلك الفارس الشجاع، في هذا الوضع الغريب. وأعدك بأنّك ستنال مكافأتك ولقد أعجب الجميع بتلك

الكلمات التي ردّدها الحلاق الذي كان يختفي خلف بوابة الحانة.

أمّا (سنشو)، الذي أبلغوه بالاستعداد للرحيل. فلقد غضب في البداية عندما رأى سيده في القفص. ولكن (دون كيخوته) الذي ارتاح من كلمات الحلاق حول المستقبل الزاهر طلب من (سنشو) ألّا يقلق. عندها ودع الحلاق والقس صاحب الحانة وزوجه وأبنته وابتدأ الحصانان يسحبان خلفهما العربة والقفص الذي ينام فيه الفارس المسكين.

وصل الموكب صباح الأحد. وكان رجال قرية (دون كيخوته) الطيبون على وشك الخروج من الكنيسة عندما وصل فارس (لامنشا) الى بيته. في البداية، وصلت العربة والفارس ممدَّد في قفصه، يبدو تعيساً أكثر من أيّ وقت مضى، خلفه (سنشو) راكباً حماره ثم القس والحلاق على بغليهما.

وعندما توقفت العربة أمام بيت (دون كيخوته)، كانت أبنة اخته ومدُبِّرة المنزل تقفان عند الباب مستعدتين للترحيب به. ولقد بكتا كثيراً بسبب كتب الفروسية الشريرة تلك عندما رأتاه وقد ضعف ونحل، وحملتاه الى السرير، وأمرهما القس بأن تراقباه بدقة وألّا تسمحا له بالهرب مرة أخرى. ووعدتاه أن تفعلا كذلك. ولكنهما لم تخفيا خوفهما من أنَّ الرجل العجوز، وبعد أن يتعافى مرة أخرى، سيعود الى تصرفاته المجنونة على الرغم من كل عنايتهما. وبالطبع فإنَّ هذا هو ما حدث بالضبط.

فارس المرايا

كان على (دون كيخـوتـه) أن يلازم الفراش مدة شهرٍ كامل. وفي أثنـاء هذه الفتـرة، بذلت المـرأتـان جهـدهمـا للعناية به. وعنـدمـا ابتـدأ الفارس يتعافى مرة أخرى، قرّر القس والحلاق زيارته للتأكد من أنَّ رأسه ما عاد محشواً بالأفكار الحمقاء التي سبّبت له كل تلك المتاعب.

وجـداه جالسـاً في فراشـه، ولقـد رحّب بهما وبدا مسروراً بزيـارتهمـا. ولكنَّ حديثـه أظهـر أنَّ اهتمـامـه الـرئيس ما زال منحصـراً في الفـروسيـة، ولـم يمـرَّ وقتٌ طويـل حتى أدركا أنه ينوي الخروج مرة أخرى بحثاً عن المغامرات. لذلك قررا أن يطلبا من تلميذ شاب أسمه (سمسون كدسكو) أن يساعدهما.

وكـان هذا الفتى قد عاد لتـوه الى القرية بعد أن أنهى دراسته في (سـالامـانكا) ولقد وعدهما سمسون بأن يأتي ويتحدث مع (دون كيخوته)، وطمأنهما بأنَّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

في صبـاح اليـوم التـالي قام الشـاب بزيارةٍ مبكّرة الى (دون كيخـوتـه)، ورّحبت به مدبِّرة المنـزل وابنـة الأخت، اللتـان

اعتقدتا بأن مثل هذا الرجل الذكي الحكيم سيظُهر للفارس حماقة أفكاره. ولقد انزعجتا ودهِشتا عندما سمعتا (سمسون) يؤيدّ (دون كيخوته) في أفكاره المجنونة. أمَّا سبب هذا التصرف الغريب فسوف نعرفه لاحقاً في هذه القصة.

بعد ثلاثة أيام رحل (دون كيخوته) ممتطياً (روثينانته) وتبعه (سنشو) على حماره (دابل). وكان (دون كيخوته) مرتدياً درعه القديم وأعطاه (سمسون) خوذة قديمة ليرتديها بدلاً من الصحن النُحاسي الاصفر. ولم يحاول أحدٌ منعه من السفر، إذ لم تستطع مدبِّرة المنزل أو أبنة الأخت أن تفعلا شيئاً بمفردهما، حيث اتفق الحلاق والقس مع (سمسون) على أن يتركوا الفارس يفعل ما يشاء.

وعندما حلّ الظلام توقف الرجلان في غابةٍ مظلمةٍ. وبعد العشاء تمدَّد (سنشو) ليرتاح وسرعان ما غطّ في نومٍ عميق. أمّا (دون كيخوته)، الذي كان تعباً أيضاً، فلقد استند على جذع شجرةٍ، وكان على وشك النوم عنادما سمع صوت ضوضاء خلفه. تلفَّت من حوله فرأى فارسين، ترجَّل أحدهما وقال مخاطباً صاحبه:

- «هذا المكان مناسبٌ، فهنا عشب للخيول كما أنَّ كلّ شيء هادىء هنا أستطيع التفكير على مهلٍ بالسيدة التي أحبّها.»

ثم تمدد على الارض فأصدر صوتاً يُشبه صوت ارتطام درع.

لقد كان هذا دليلاً أكيداً لدون كيخوته على أنَّ هذا الرجل هو فارس. لذلك اتجه بهدوء الى (سنشو)، وأيقظه بصعوبة فائقة، وقال له بهدوء:

- «هناك مغامرة تنتظرنا ياسنشو!.»

ابتدأ الفارس الغريب يغني أغنية حب حزينة جداً، قال بعدها بصوتٍ حزين جداً:

- «يا(كسلديا)، ياأجمل النساء وأكثرهن جحوداً. الى متى سأظل أسافر عبر العالم محروماً من الحب؟. ألا يكفي أني قلت: إنك أجمل نساء نبرة وليون وقشتالة ولامنتشا؟»

فقال (دون كيخوته):

- «هذا مجنون!. ألم يسمع مُطلقاً بدلثينا ديل توبوسو؟.»

وسمع صوته الفارس الغريب، فقفز على قدميه صارخاً:

- «مَن هناك؟. قل مَن أنت؟»

بعد أن اكتشف الفارس أنهما مُهتمان بالأشياء نفسها، جلسا ليتسامرا معاً، في حين ذهب (سنشو) مع تابع الفارس الغريب الى مكان آخر من الغابة. وعندما وجدا مكاناً يستطيعان الراحة فيه، سأله (سنشو):

- «ماسم سيدك؟»

فقال له التابع:

- «إنّه يُسمى (فارس المرايا) وهو مجنون بعض الشيء ويبحث عن فارس آخر يقال إنّه مجنون أيضاً.»

فردَّ (سنشو):

- «إذا كان يرغب في صحبة المجانين فإنه لمحظوظ حقاً، إذ إنَّ سيدي مُمتليء بالأفكار المجنونة، بحيث إنَّ طفلاً يستطيع إقناعه بأنَّ الوقت ليلٌ حتى لو كانت الشمس في كبد السماء. ولكني أحبّه على الرغم من بساطته ولاأستطيع التخلي عنه على الرغم من كلّ حماقاته.»

وقال صديق (سنشو) الجديد:

- «يبدو أنك عطشان، فلقد تحدثت كثيراً، وعندي ما

يُنقصـك . » وبهـذه الكلمات نهض وذهب الى حصانه ، ثم عاد في الحـال ومعـه قنينـة جلديـة كبيـرة . وبعـد أن أحتسى شربة طويلة ، ناول القنينـة لسنشـو الـذي رفعهـا الى الاعلى وأرجـع رأسه الى الخلف ثم تمدّد وعيناه مُثبتتان على النجوم لربع ساعه تقريباً ، وصرخ وهو يضع القنينة على الارض في النهاية :

ـ «آه . إنَّ هذا لامتع شيء في العالم ! . »

تحـدث الـرجـلان وشربا ، وشربا وتحدثا ، حتى ناما في النهاية وهما مُمسكان بالقنينة .

في حين كان التـابعـان يُسليـان نفسيهما بهذه الطريقة ، كان فارس المرايا يُحدث (دون كيخوته) عن المخاطر التي واجهها من أجل سيدته (كسلديه دي وندليا) . وفي ختام قصته أضاف :

ـ «كان اخر أوامرها أن أزور كلّ جزء من اسبانيا ، وأن أجبر كل فارس التقيه على أنْ يعتـرف بأنهما أجمل امرأة من كل النساء الأحيـاء ، وأنّي أشجـع الفرسان واكثر العُشاق وفاء في العالم . ولقـد أجبـرت عدداً لايُحصى من الفـرسان على أنْ يُرددوا هذه الكلمـات ومن بينهم الفـارس الشهير العظيم (دون كيخوته دي لامنشا) ، وبذلك أصبحت كل شهرته ملكاً لي الآن .

دُهش (دون كيخـوتـه) عنـد سمـاعه ذلك ، وأرادا أن يستلّ سيفه في الحال لكي يدافع عن شرفه ، ولكنه ظلّ هادئاً وقال :

ـ «لابُـد من أنَّ ذلـك الـذي قابلته فارساً يُشبه دون كيخوته ، فأنا متأكد من أنَّه ليس دون كيخوته بالذات . »

فأجاب فارس المرايا :

ـ «بلى ، لقـد كان هو ولاأحـد غيـره . كان رجـلاً طويلاً ونحيفاً جداً ، ولـه ذراعـان ورجلان طويلتان ، وله لحية رمادية اللون ، وهو يُسمي نفسه (الفارس ذو الطلعة الحزينة) ، ويركب حصاناً



مشهوراً اسمه (روثينانته)، وله تابع اسمه (سنشو بنثا)، ويخدم سيدةً معروفه باسم (دلثيا ديل توبوسو)، على الرغم من أنَّ اسمها الحقيقي هو (الدونثا لورينثو).

فردَّ (دون كيخوته):

ـ «لقد وصفته بالضبط ولكن لابُدَّ أنَّك قد خُدعت. إنَّ الساحر العظيم الذي يزعجني دائماً قد ظهر لك بهيئة (دون كيخوته)، ثم سمح لنفسه أن يُهزم لكي يسلب (دون كيخوته) مجده وشرفه. وإذا كنت تودّ أن تعرف مَن هو (دون كيخوته) الحقيقي، فهاهو يقف هنا، مُستعداً للدفاع عن شرفه سواء أكان راجلاً أم على صهوة جواده. وفي أيِّ مكانٍ أو زمانٍ تختاره أنت!.»

وعندما انتهى من كلامه وقف ويده على سيفه مُنتظراً الجواب.

فردَّ الآخر قائلاً:

ـ «ستشرق الشمس بعد ساعة من الآن، وسنتقاتل عندئذ لنحسم الامر. والشرط هو أنَّ الخاسر يجب أنْ يُطيع الرابح في كلّ شيء.»

وافق (دون كيخوته) على ذلك، وذهب الفارسان لينأديا تابعيهما اللذين كانا يغطّان في نوم عميق، وعندما انقشع الظلام، أمتلأ (سنشو) بالرعب مما رأى، فلقد كان للتابع الآخر أنف هائل الحجم، مُدبّب النهاية ويمتد نصف قدم تحت فمه تقريباً. بحث (سنشو) حوله عن سيده الذي كان يستعد للقتال مع فارس المرايا. ولقد أغلق الفارس قناعه، لذلك لم يكن بالامكان رؤية وجهه. وفوق درعه أرتدى ستره طويلة مصنوعة من قماش ذهبي ومغطاة بعدد من المرايا

الصغيرة التي تشعّ في ضوء الشمس المُشرق.

في حين كان (دون كيخوته) يراقب هذه الاشياء، جاء (سنشو) راكضاً وهو يصرخ مدهوشاً:

- «انظر يا سيدي، الأنف!، الأنف!.»

وعندما نظر (دون كيخوته) الى التابع والى أنفه المُدبّب الهائل اعتقد بأنه مخلوق مرعب من عالم آخر، وأضاف (سنشو) في صوتٍ مرعوب:

- «ساعدني في أن أتسلق هذه الشجرة يا سيدي العزيز، فأنا أريد أنْ أرى القتال مع الفارس، وأستطيع أن أرى ذلك جيداً من خلال الأغصان».

ابتسم (دون كيخوته) من قولِ تابعه ولكنه ساعده على تسلّق الشجرة.

وبعد ذلك، توّجه، ورمحه في يده، بعنفٍ تجاه عدوه. وكان الفارس الآخر يحثّ حصانه على الهجوم. ولكنَّ الحيوان، أمّا أنّه لا يستطيع، أو لا يريد التحرك.

وقبل أنْ يهيء فارس المرايا رمحه، ضربه (دون كيخوته) بعنفٍ ضربة أسقطته على الارض حيث تمدَّد هناك بلا حراك.

حالما رآه (سنشو) وهو يسقط على الارض، نزل من الاغصان وركض نحو سيده الذي كان يخلع خوذة الفارس المهزوم ليرى إنْ كان حيّاً.

وكم كان مدهوشاً عندما فتح القناع، ووجد وجه (سمسون كرسكو) المألوف، فصرخ قائلاً:

- «انظر يا (سنشو)، هذا مزيد من السحر. ألا يتوقف ذلك الساحر الشرير عن إزعاجي!»

نظر اليه (سنشو) ممتلئاً بالخوف وقال:

- «أليس من الافضل أن تقتل هذا الرجل بسيفك؟. أنا متأكد من أنَّ الساحر الشرير هو الذي تنكّر بهذه الهيئة لكي يخدعك.»

وردَّ (دون كيخوته):

- «إن في كلامك لحكمة، وسيقلّ عدد أعدائنا واحداً.»

ثم استلّ سيفه ليفعل ما نصحه به (سنشو). ولكن في تلك اللحظة، قدم التابع الآخر راكضاً، ولم يُعد مرتدياً ذلك الأنف المخيف، وهو يصرخ بصوتٍ عالٍ:

- «احذر مما أنت فاعل سيدي الفارس، لأنَّ الرجل الساقط عند قدميك هو صديقك (سمسون كركسو) وأنا تابعه.»

فسأله (سنشو) وهو يبحث حوله:

- «ولكن أين أنفك؟»

أجابه

- «هنا!» ثم سحب الأنف الذي كان مصنوعاً من ورق مُقوّى من جيبه وتفحص (سنشو) الرجل ومالبثت أن صرخ مدهوشاً:

- «ألست جاري وصديقي توم ثيال؟»

فأجاب الآخر:

- «نعم يا (سنشو)، وأتوسل إليك بأسم صداقتنا القديمة أن تطلب من سيدك أن يصفح عن هذا الفارس التعيس!».

عندها فقط فتح سمسون (ولقد كان هو حقاً) عينيه ورأى (دون كيخوته) واقفاً وهو ممسك بالسيف على وجهه وقال له:

- «اعترف بأنَّ (دلثينا ديل توبوسو) أجمل من السيدة (كالسديه)، وعدني بأن تذهب الى (دلثينا) وأن تخبرها بأني هزمتك، ثمَّ تعود وتخبرني بما ردّت عليك. عدني أن تفعل كل

هذا أو تموت . »

فقال (سمسون) :

ـ أعـدك بكـل شيء ، دعني أنهض اذا كنت أستطيـع ذلك ، لأنَّ إصابني خطيرة . »

ساعـد (دون كيخـوتـه) توم سمسون على النهوض ، وابتعد الـرجـلان أحـدهمـا عن الآخر تلوح عليهما علامات التعاسة . لقد كان (دون كيخوته) متأكداً من أنَّ هذا التغيُّر المُفاجئ سببه ذلك الساحر الشرير عن سابق قصد ليسلبه شهرته .

إنَّ هنـالك حاجة لبضع كلمات تفسّر سبب تنكُّر (سمسـون) في زي فارس المـرايـا وخلقه هذا النزاع مع (دون كيخوته) إننا نتـذكـر أنَّ (دون كيخـوتـه) قد قرر الـرحيل بحثاً عن مغامرات جديـدة وأنَّ (سمسـون) ساعده في ذلك ، ولقد نصحه في فعل ذلك كل من القس والحلاق اللذين أملا أن يجبرا الفارس على العيش بهدوء في بيته وذلك بخداعه بهذه الطريقة .

فلقـد تمَّ الاتفـاق على أن يتنكّـر (سمسـون) بزي فارس ويتقـاتـل مع (دون كيخـوتـه) ، وأن يكـون شرط القتـال هو أنَّ الخـاسـر يجب أنْ يطيـع أوامـر الـرابح ، ولقد كان (سمسون) متأكـداً من أنـه سيكـون الـرابـح ، وقـرر أن يطلب من (دون كيخـوتـه) العـودة الى القرية والعيش بهدوء هناك لمدة سنتين . وبعد مرور هاتين السنتين ، أمّلوا أنَّ جنونه سيختفي .

هذه اللحظـة أخفقت تماماً ، لأنَّ (سمسون) نفسه قد هُزم . ولقـد تحمسَّ (دون كيخوته) اكثر من قبل لمغامرات الفرسان ، وعاد (سمسون) الى بيته حائراً لايدري ما يفعل ! .



المغامرة مع الأسد

غادر (دون كيخوته) وتابعه الغابة حيث التقيا فارس المرايا. كانا يتهاديان على الطريق بحثاً عن مغامرات جديدة. عندما رأيا عربة قادمة تجاههما تسحبها البغال. وكان هناك رجلان. أحدهما يركب بغلاً والآخر جالس في مقدمة العربة، وعندما رأى (دون كيخوته) ذلك صرخ بهم:

- «توقفوا، وأنبأوني بما تحملون في هذه العربة.»

فردَّ عليه السائق:

- «ياسيدي، في عربتي أحمل أسداً، أقدّمه هدية إلى ملك اسبانيا من قِبل قائد الجيش في افريقيا.»

فسأله (دون كيخوته):

- «وهل هو كبير هذا الأسد؟»

فردَّ الرجل الجالس في مُقدمة العربة:

- «نعم، كبير جداً، الى درجة أنّي لم أرَ أسداً بهذا الحجم من قبل، من بين كل تلك الأسود التي جلبتها من افريقيا، أرجوك دعنا نمرّ، فالحيوان جائع، فهو لم يأكل أيّ شيء هذا اليوم،

وأريد أن أصل الى مكان أحصل فيه على بعض اللحم له . »
وقف (دون كيخوته) يُفكر بضع لحظات ، ثم قال بهدوء وقد علت وجهه ابتسامة نبيلة :
- «أسد؟ . أيرسل عدوي الساحر أسداً ضدي الآن؟ . حسن ، سيرون كيف أواجه أسد . »
ثم استدار الى الرجلين قائلاً :
- «أخرجا الاسد من القفص ، سأعلّمه من يكون (دون كيخوته دلامنشا)» وعندما رأى السائق (دون كيخوته) مُمسكاً برمحه ومُمتشقاً سيفه قال له :
- «لأجل الله ياسيدي الطيب ، أمهلني بعض الوقت كي أفكّ زمام بغالي وأبعدها ، فإذا قتل الأسد بغالي ، فلن أستطيع كسب لقمة عيشي ! . »
فأجابه (دون كيخوته) :
- «أحمق ! . أبعد بغالك إنْ أردتْ ، وسترى كيف أنَّ مخاوفك بلا أساس . »
جاء (سنشو) الى سيده وتوسل اليه ألَّا يقاتل الاسد :
- «كنت أنظر الى الاسد قبل قليل خلال ثقب صغير ، ورأيت قدمه ، وأنا متأكد من أنَّ للحيوان لابّد من أن يكون بحجم الجمل ! »
فردَّ عليه (دون كيخوته) :
- «إذا قسناه بمخاوفك فربما يكون الاسد بحجم الأرض . ابتعد مسافةً آمنة ، فإن قُتلت ، فإنّك تعرف ما يجب أن تفعل . انقل الأخبار الى (دلثينيا) وقل لها . . ولكن لا داعي لأنَّك تعرف ما تقول . »

في هذه الأثناء أبعدت البغال عن العربة ، وابتعد البغَّال



وتبعه (سنشو) مذعوراً. عندها استعد الرجل الثاني لفتح القفص، وقرر (دون كيخوته) أن يبارز الاسد راجلاً. فلقد فكَر في أنَّ (روثينانته) قد يخاف من رؤية الأسد، لذلك قفز من حصانه، ممسكاً بترسه أمامه، ووقف أمام القفص.

فتح الباب على مصراعيه كاشفاً عن أسدٍ هائل الحجم. كان مُمتدداً في البداية، لكنه مالبث أنْ نهض وتمطّى، وابتدأ ينفض الغبار العالق على عينيه، ثم ابتدأ بعد ذلك بتنظيف نفسه ببطء وبعناية. وبعد أنْ انتهى من كل ذلك، مدَّ رأسه خارج القفص، ونظر حوله في كل الاتجاهات بعينين حمراوين براقتين. كان منظراً يملأ قلب أشجع الرجال بالرعب، ولكنّ (دون كيخوته) لم يتحرك. انجأ واحداً، بل انتظر لكي يقفز الاسد من القفص، ويقترب منه حتى يُمزقه إرباً إرباً.

ولكنَّ الاسد لم يهتم بالفارس الشجاع، فبعد أن نظر من حوله في كل اتجاه، استدار ببطء وأعطى ظهره الى (دون كيخوته) ثم أضطجع مرة أخرى في القفص.

طلب (دون كيخوته) من الرجل أن يضرب الاسد بالعصا ليُجبره على الخروج، فأجابه الرجل:

ـ «لا أستطيع فعل ذلك، فإذا ضربته وأغضبته فسأكون أوّل رجل يمزِّقه إرباً إرباً. لقد فعلت كل ما هو ضروري، لقد واجهت الاسد بشجاعة، ولكنه ليس راغباً في مقابلتك. لقد أرضيت كبرياؤك، فأنت المنتصر بالتأكيد.»

فقال (دون كيخوته):

ـ «أنت على صواب، أغلق باب القفص.»

وأصدر (دون كيخوته) إشارة للآخرين كي يعودوا بأمان، ووعد الرجال بأن يقصّوا على الملك في (مدريد) كيف واجه (دون كيخوته) الاسد بشجاعةٍ.

وهكذا انتهت هذه المغامرة العظيمة، وجعلت اسم (دون كيخوته) مشهوراً أكثر من أيّ وقت مضى.

معركة دون كيخوتة الاخيرة

يجب أن نمّـر مروراً عابـراً على العـديد من مغامرات (دون كيخـوتـه) و (سنشو نبثا) بعد المعركة مع فارس المرايا، ونقصّ قصة معركته الاخيرة.

ففي أحـد الأمسيـات، وفي حين كانـا يتجهـان الى مدينـة (برشلونة)، خيمّ الظلام قبل أن يتمكنا من الوصول الى قلعة أو حانـة أو حتى يعثـرا على كوخ يُمضيان الليل فيه. لذلك اضطر لقضاء ساعات الظلام في غابة صغيرةٍ على مقربة من الطريق. وفي خين كان (سنشو) يمشي بين الأشجار، اصطدم رأسه. بشيء ما، وعنـدمـا تحسَّسـه بيـديه، اكتشف أنَّهما زوجان من الأرجـل يتـدليـان من شجـرة. ابتعـد قليـلاً وهـو يرتجف من الـرعب، فوجـد زوجين آخـرين من الأرجـل متـدليين أيضـاً، فصرخ مرعوباً:

ـ «النجدة يا سيدي، فهذه الأشجار ممتلئة بارجل الرجال وأقدامهم.»

جاء (دون كيخوته) في الحال وفهم ماكان يحدث، فقال لصاحبه:

- «ليس هناك من شيء يدعو الى الخوف. إنَّ هذه الأرجل تعود لقطّاع الطرق والقتلة الذين اعتقلوا وشنقوا من قبل الشرطة.»

ومثلما يمكن أن نفترض، فإنهما لم يناما كثيراً تلك الليلة.

وعندما أشرقت الشمس، رأيا جثثاً على مُعظم أشجار الغابة. وفي حين كانا يستعدان للمغادرة، ظهرت مجموعة مُكوَّنة من أكثر من أربعين قاطع طريق، وأمرا المسافرين أن يبقيا في محلهما حتى يصل قائدهم. ولأنهما أخذا على حين غرةٍ، فلم يكن القتال مُجدياً.

وعندما وصل قائدهم، اتجه نحو (دون كيخوته) الذي أدهشه ظهوره كثيراً وقال له بأدب:

- «لا تقلق أيها الصديق الطيب، فلم تعتقلوا من قبل قاطع طريق شرير، بل أنا (روكو كونارت)، المشهور بالرحمة أكثر من القسوة.»

فأجابه (دون كيخوته):

- «أيها الشجاع (روك)، إني أشعر بالحزن عندما أفكّر كم كنت مهملاً. فلو وجدني رجالك على ظهر حصاني، وترسي على ذراعي، ورمحي في قبضتي، لما كان ممكناً أنْ أقتاد أسيراً. وسوف تصدِّق هذا بسهولةٍ عندما تعرف أني (دون كيخوته دلا منتشا) الذي أمتلأ العالم بسمعته.»

إنَّ من غرائب المصادفات أنْ يلتقي وجهاً لوجه؛ الفارس المجنون وقاطع الطريق النبيل، فلم يكن (روك) لصّاً عادياً، إذ إنه ينحدر من عائلة طيبة وقد تلقى تعليماً جيداً. وعلى الرغم من أنه كان يحيا حياة خارجة على القانون، غير أنه كان رحيماً

بالفقراء والضعفاء والمساكين. ولقد سُرَّ كثيراً بلقاء (دون كيخوته) لأنه كان قد سمع بهذا الجنون الغريب. لذلك طلب من الفارس أن يرحل معه لبضعةً أيام، ووعده بأن يرسل رسالة الى صديقٍ له مقيم في (برشلونة)، يطلب منه فيها أن يرحّب بالفارس عندما يصل تلك البلاد. وهكذا سافر (دون كيخوته) و (سنشو) في الايام الثلاثة التالية وعبرا بواباتها وسارا في شوارعها الرئيسة.

كان صديق (روك)، الذي بعث اليه برسالة التوصيه، رجلاً نبيلاً غنياً يُدعى (دون انتونيو مورينو)، ولقد رحّب بالفارس ترحيباً حاراً، واستمع الى أفكاره المجنونة بجدّية. ولقد تسلّى هو وأصحابه كثيراً، ولكن (دون كيخوته) لم يُدرك أنهم يسخرون منه. أمّا (سنشو بنثا) فلقد وجد مكانه المناسب بين الحذم الذين استمتعوا بأحاديثه المُسلية كثيراً، وكان كل من الفارس وتابعه سعيدين لبضعة أيام.

وفي صباح أحد الايام، وفي حين كان (دون كيخوته) في ضواحي المدينة رأى فارساً بكامل عُدّته يتجه نحوه، وعلى ترسه رسم قمر. وحالما اقترب منه حتى صرخ بصوت عالٍ:

- «أيها الفارس المشهور، دون كيخوته دلا منتشا، أنا فارس القمر، ولربما سمعت بشهرتي من قبل. لقد جئت إلى هنا لغرضٍ في نفسي. يجب أن تعترف بأنَّ سيدتي - بغض النظر عمن تكون - أجمل بكثير من (دلثينا ديل توبوسو).

فإن وافقت على فعل ذلك، فحياتك في أمان، وإن رفضت ذلك يجب أنْ تقاتلني. ويجب أن تعد بأنك إذا هُزمت، فيجب عليك أنْ تعود الى قريتك، وتعيش هناك في سلام وهدوء لمدة سنة واحدة من دون القيام بمغامراتك فارساً وإذا هزمتني فإنَّ

بإمكانك أن تأمرني بما تشاء.»

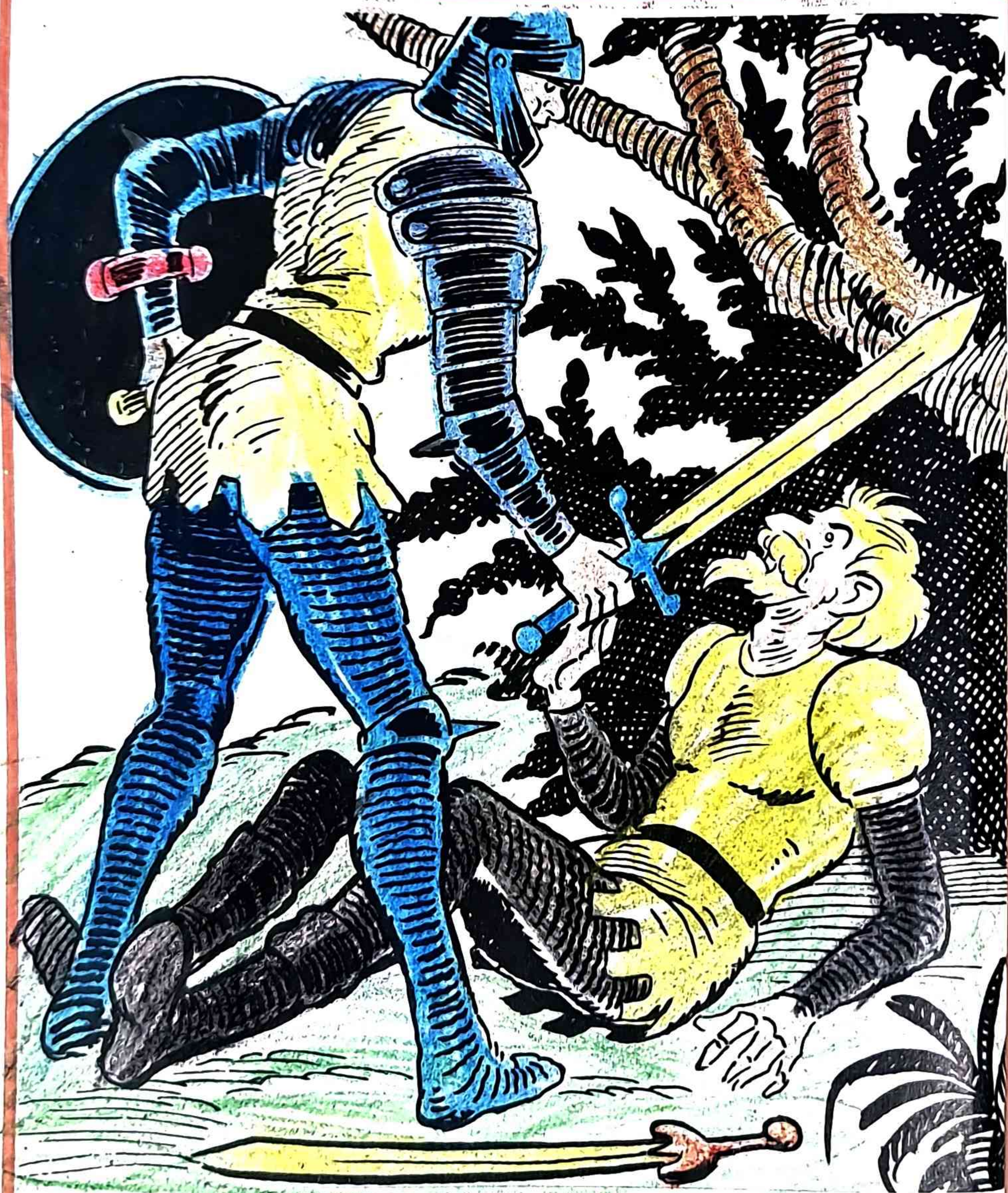
دُهش (دون كيخوته) كثيراً عند سماعه هذه الكلمات، ولكنه أجاب بهدوء:

- «يا فارس القمر، لم أسمع عنك أيّ شيء من قبل، وأنا متأكد من أنك لم تر الجميلة (دلثينا) من قبل مطلقاً، إذ لو أنك رأيتها، لما تحدثت عنها بهذه الطريقة الحمقاء. أنا مستعد للقتال. فتهيّأ وسأفعل الشيء نفسه.»

وفي تلك اللحظة، حدث أنْ كان كبير قضاة (برشلونة) ماراً في ذلك الطريق مع مجموعة كبيرةٍ من النبلاء من بينهم (دون انتونيو). وعندما رأى الفارسين وهما يتهيآن للقتال، استفسر القاضي عن سبب النزاع، فشرح له فارس القمر أنهما سيتقاتلان ليُقررا أيّ سيدة أجمل من الأخرى، سيدته أم سيّدة (دون كيخوته). ولما كان القاضي قد سمع بجنون (دون كيخوته)، فلقد افترض أنها نكتة أخرى للسخرية من الفارس المسكين المجنون، لذلك سمحَ باستمرار القتال، ووقف ليتفرج على النتيجة.

ابتعد الفارسان أحدهما عن الآخر لكي يتخذا موضعيهما. وتوقفا في اللحظة نفسها، ثم استدارا بحصانيهما واندفع أحدهما تُجاه الآخر بسرعةٍ كاملة. وقبل أن يقطع (دون كيخوته) ثُلث المسافة، التقاه فارس القمر الذي كان يمتطي حصاناً قوياً ممتازاً، ومن دون أن يمسّه برمحه، أسقط (روثينانته) وراكبه على الارض، ثُمَّ صوَّب رمحه على قناعه قائلاً:

- «لقد خسرت المعركة أيها الفارس وستفقد حياتك إنْ لم



توافق على شروطي.»

وبصوتٍ واهنٍ جاء جواب (دون كيخوته):

- «اقتلني، فلاشيء يُمكنه أنْ يجبرني على القول: إنَّ (دلثينا) ليست أجمل امرأة في العالم.»

فأجابه المنتصر :

ـ «إنَّ ذلـك ليس ضروريـاً . كل ما أتمنـاه أنْ يذهب (دون كيخوته) العظيم الى بيته في قريته ويبقى هناك لمدة عام . »

فردَّ عليه (دون كيخوته) :

ـ «إذا لم تسألني أنْ أقول شيئاً ضد (دلثينا) فإني سأطيعك . »

اقتنع فارس القمر ، وبعد أن انحنى للقاضي ابتعد مُتجهاً نحو المدينة . أمّا (دون كيخوته) الذي جُرح جرحاً بالغاً بسبب سقوطه ، فلقد نُقل الى منزل (دون انتونيو) ، وتَبعه (سنشو) ، مثل رجلٍ حالم ، يُسائل نفسه إن كانت مثل هذه الاشياء قد حدثت حقاً .

كان (دون انتونيو) مُتلهفاً جداً لمعرفة المزيد عن الرجل الذي تغلب على (دون كيخوته) . ومن دون صعوبة تُذكر ، عثر على الحانة التي كان فارس القمر ساكناً فيها ، وانكشفت الحقيقة في الحال . فلقد كان الفارس الغريب هو (سمسون كرسكو) ، الذي ظهر مُسبقاً في هذه الرواية على أنّه فارس المرايا . إذ قرّر أنْ يحاول مرة أخرى إعادة (دون كيخوته) الى البيت ، وهذه المرة بحصان أفضل ، ولقد نجح في مسعاه . وفي ختام حديثه أضاف قائلاً :

ـ «لست أخشى أنْ يحنث (دون كيخوته) بوعده فهو رجلٌ شريف . ولكني أتوسل إليك ألّا تفشي السر لصديقنا ، لأنه لو عرف ذلك لازداد جنونه . وان السبب الوحيد الذي قاتلته من أجله هو أن أضع حداً لذلك . »

وعد (دون انتونيو) بالمحافظة على السر ، وبعد المحادثة بقليل افترق الرجلان .

الموت

ما إن تعـافى (دون كيخـوتـه) بدرجةٍ تُمكنه من تحمل أعباء السفر حتى غادر برشلونة وكان يقطع بضعة أميالٍ كلَّ نهار حتى وصـل في النهـايـة الى قريته. وكانت الأخبار قد سبقته، لذلك عندما دخل الى البيت، وجد كل أصدقائه في انتظاره للترحيب به.

ولقـد التقى (دون كيخـوته) في أثناء رحلاته، بمجموعة من الشبـان والشـابـات الـذين كانـوا يُسلّون أنفسهم بمـزاولة مهنة الـرعي. لذلـك وبعـد أنْ هزمـه فارس القمـر، فكّـر في أنَّ من المنـاسب أنْ يُصبح راعيـاً. إذ يستطيـع بذلـك أن يُقضي سنة كاملة في العناية بأغنامه، وهو يُغّني اغاني بسيطةً في الثناء على (دلثينا) ويحفر أسمها على جذوع الاشجار. ولقد أخبر القس. والحلاق و (كرسكو) بخطته هذه. فأعتقدوا جميعاً بأنَّ مثل هذه الحيـاة الـريفيـة ستكـون مفيدة لصحتـه وأثنوا كثيراً على خطتـه. وفي الـوقت نفسـه كان من الصعب عليهم أن يمنعـوا

أنفسهم من الضحك من الفارس العجوز ذي الشعر الرمادي، باعتباره راعياً يُغنّي أغاني الحب ويرقص في الحقول.

عندما ذهبت مدبِّرة المنزل لتطمئنَّ على صحة سيدها صباح اليوم التالي، انزعجت عندما اكتشفت أنه مريض جداً. ولعدة أيام لم يطرأ أيّ تحسنٍ على حالته. زاره اصدقاؤه كل يوم، كما أنَّ الوفي (سنشو) لم يبرح سريره مُطلقاً.

ولكن ما كان يُقلق الجميع هو حزنه العميق، إذ كان يبدو وكأنَّه فقد الاهتمام بالحياة. وعندما استدعي الطبيب وفحص العجوز، هزَّ رأسه بحزن، وقال:

إنَّ من الأفضل أن يُفكّر (دون كيخوته) في العالم الآخر، لأنه لن يُقضّي وقتاً طويلاً في الدنيا. ولقد أصغى (دون كيخوته) الى هذه الأخبار بهدوء شديد، ولكنَّ (سنشو) امتلأ بحزن شديد وكذلك ابنة الأخت ومدبِّرة المنزل. وانسابت الدموع.

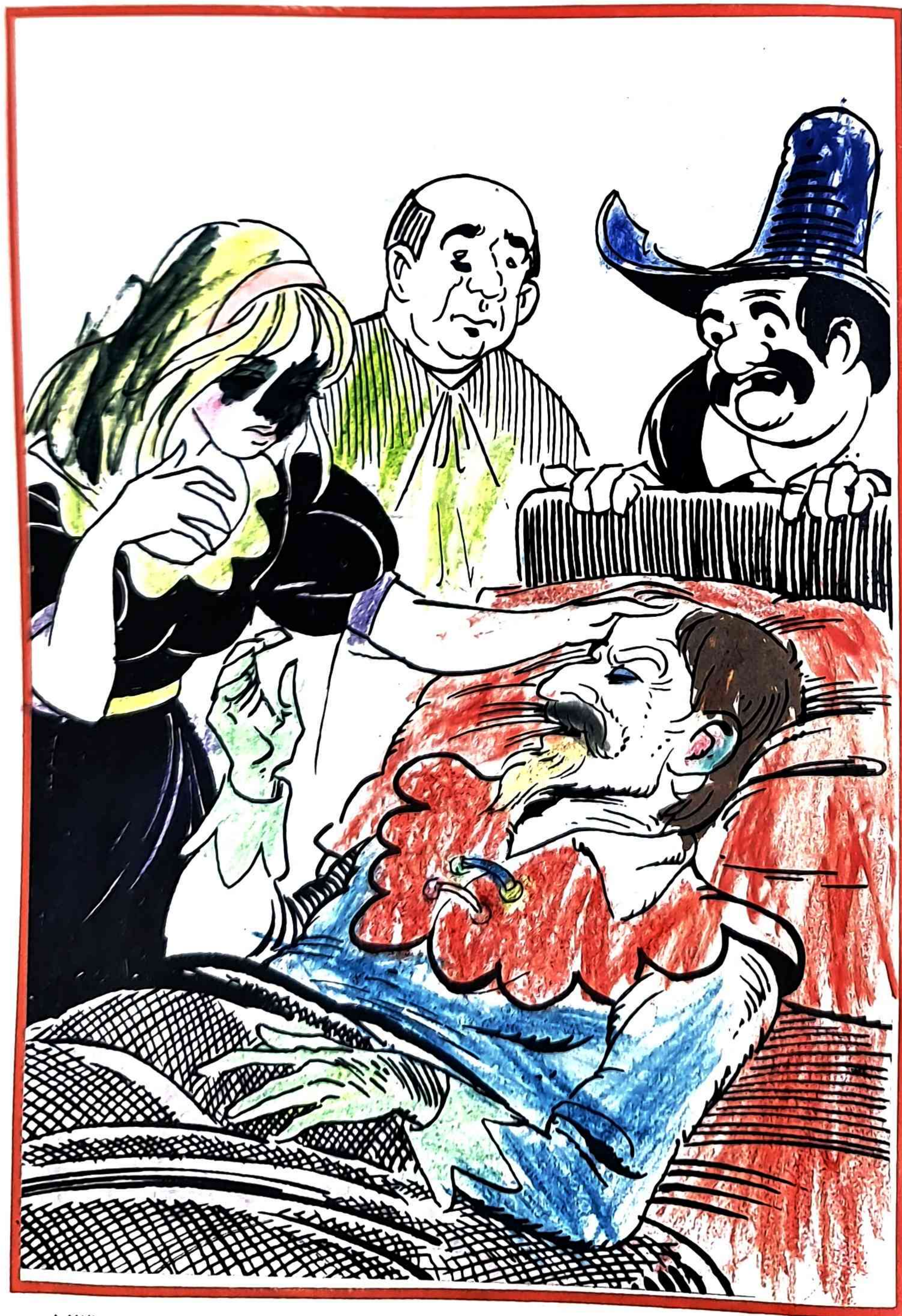
على وجوه الثلاثة كما لو أنه قد مات حقاً. ولقد قال الطبيب: إنّه يحتضر بسبب الأسف وخيبة الأمل. وتوسّل اليهم (دون كيخوته) أنْ يتركوه وشأنه لأنّه يريد أن ينام. وعندما فعلوا ذلك، نام أكثر من ست ساعات. وازداد قلق أبنة الأخت ومدبِّرة المنزل خشية أن يموت في أثناء نومه، وفجأة سمعتاه وهو يصرخ بصوتٍ عالٍ:

- «الشكر لله الذي كان رحيماً بي ولا حدود لرحمته.»

أسرعت المرأتان إلى جواره وسألتاه عن سبب صراخه حول رحمة الرب.

فقال (دون كيخوته):

- «في هذه الساعة نلت رحمة الرب. لقد غمرني ضوء عظيم،



وانـزاحت عن ذهني كل تلك السحب السـود التي كانت تملأه بفعـل تلك الكتب الشـريـرة حول الفـروسية. نعم، إني أدرك الآن أنَّ تلك الكتب كانت محشوة بالحماقة والخداع.

وإني متأسف لأني اكتشفت ذلك متأخراً جداً. يا أبنة أختي أشعـر بأني سأمـوت، ولا أريـد النـاس أن يقـولـوا: إني مت مجـنـونـاً. اذهبي واطلبي كل أصـدقـائي الطيبين؛ القس و (سمسون كرسكو) و (نيقولا) الحلاق، أريد أن اعترف وأملي وصيتي.»

أطـاعـت الفتـاة خالهـا، وعـادت في الحـال مع أصـدقـائـه الثلاثة. نظر اليهم (دون كيخوته) والسعادة تُشرق في عينيه وقال:

- «أصـدقـائي الأعـزّاء، لديَّ أخبـار طيبـة لكم. لم أعُـد (دون كيخـوتـه دلا منتشـا). بل (الـونسو كيخانو). وأنا أكره الآن كل قصص الفـروسيـة تلك، وأدرك مقـدار حماقتي والمخاطر التي وضعت نفسي فيهـا بسبب قراءتي لهـا. وبفضـل رحمـة الله تعلمت هذا الدرس ولو بثمن غال.

في البـدايـة لم يصّدق أصحابه بأن الجنون قد فارقه، ولكنه تحـدّث بهـدوء حتى أنّهم أدركوا في النهاية أنّ ما يحدث كان حقيقة واقعة. بقي القس لوحده مع (دون كيخوته) وسمع اعترافه. أمّا (سمسون) فلقد ذهب ليستدعي محامياً.

في حين عاد (سنشـو) الـذي التقـاه في الطـريق معـه الى البيت، وعندما رأيا المرأتين تبكيان بدأ يبكيان أيضاً.

خرج القس من غرفة النوم وقال

- «أنّـه يحتضـر، ولقـد فارقـه الجنون، وعندما يصل المحامي سندخل عليه.»

وعلت في إثرِ هذا الكلام نوبة بكاء جديدة من ابنة الأخت ومُدبرة المنزل و(سنشو) عندما سمع الثلاثة بأنْ ليس ثمّة أمل، لأنّه لم يكن هناك من سيدٍ رقيقٍ ولا صديق فاضلٍ مثل (الونسو كيخانو) أوْ (دون كيخوته دلا منشا).

جاء المحامي ودخل الجميع غرفة (دون كيخوته)، وبعد تقديم هدايا مُناسبة لسنشو ومُدبرة المنزل، ترك (دون كيخوته) كل ثروته لابنة أخته (انتونيا كيخانو)، على شرط أنْ تختار زوجها شخصاً لايعرف عن كتب الفروسية شيئاً.

بعد إعلان الوصية، عاش (دون كيخوته) ثلاثة أيام أخر، وفي اليوم الثالث توفي بهدوء وسلام.

هذه قصة حياة (دون كيخوته دلا منتشا) ومماته، كان رجلاً حكيماً ورحيماً ونبيلاً، ولقد أودت به غلطة كبيرة الى أنْ يُضيّع حياته، ومع ذلك، وعندما قادته خيالاته الى ارتكاب أكثر التصرفات توحشاً أبقى شرفه نظيفاً. إنَّ اولئك الذين يسخرون من أفعاله لايُمكنهم أنْ يُخفوا حبهم له. وقبل أن يموت اكتشف حماقاته، ولكنَّ ذهنه، الذي كان مُمتلئاً بالأحلام والظلال

، لم يكن قادراً على مواجهة الحياة الحقيقية، لقد سمع صوتَ الحقيقة يُنادي ولكنَّه أدار ظهره للعالم.

- انتهت -

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٤٤٨ لسنة ١٩٨٧

مطبعة سومر هاتف ٧١٩٩٧٤٣

لوحة الغلاف : بابلو بيكاسو

الرسوم الداخلية : ضياء الحجار

السعر ٤٠٠ فلس